هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾

**شرح الكلمات:**

**حجْر**: الحِجرُ: العقلُ. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ لا يعني: هل يوجد في ذلك قَسمٌ لعاقل أم لا يوجد، بل إن (هل) تفيد التصديق الإيجابي (مغني اللبيب)، مثلما يقال في لغتنا الأردية أيضًا: أخبر الآن، هل هذا صحيح؟ والمراد أنه صحيح يقينا. فقوله تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ يعني: هل يمكن أن تنكروا وجود قَسَمٍ لذي عقل؟ أي أن كل عاقل سيجد في هذه الشهادة دليلا على صدق الإسلام وصدق محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ يدل بوضوح على أن الله تعالى يعلن هنا أن الآيات العظيمة المذكورة أعلاه يجب أن تجعل كل عاقل يدرك أن هناك دلائل بينة وبراهين قاطعة على صدق ما نعلن، فعندما تقع تلك الآيات العظيمة فلا بد للمرء أن يقرّ أن هذه الأنباء الغيبية العظيمة كانت فعلاً من عند الله تعالى. فلا قيمة لقول البعض إن مؤسس الأحمدية قد ادعى بدون دليل، إذ لا بد أن يفكر العاقل: كيف خطر ببال هذا المدعي أن يعلن دعواه في عام ١٨٩٠م بالتحديد؟ أو لماذا لم يفكر أحدٌ قبله أن يعلن مثل هذه الدعوى في ذلك العام؟ المعروف أن هذه الأعداد والسنوات كانت خفية عن الجميع إلى حدٍّ كبير، فلماذا لم تخطر هذه الأعداد والسنوات ببال الأولين؟ وكيف خطر ببال مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام أن يعلن دعواه في وقت كان يجب أن يظهر فيه المدّعي بحسب النبوءات؟

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا لم يُكتب النجاح لمن ادعى المهدوية من قبل، بينما كُتب لحضرته عليه السلام؟ هناك مئات الناس الذين ادّعوا المهدوية قبل بعثته عليه السلام، فلماذا قضي على هؤلاء حتى اندثرت آثارهم، أما هذا الشخص الذي أعلن دعواه في ١٨٩٠م فكتب الله له النجاح والقوة؟ أليس هذا دليلا أنه عليه السلام قد أعلن دعواه بناء على أمر الله تعالى و لم يكن هذا الإعلان صدفةً؟ لو كان صدفة ولو كان

نجاحه نتيجة جهود مادية، فقد كانت عند بعض مدّعي المهدوية السابقين فُرصٌ أكثر للازدهار إذ فتحوا الأمصار ونالوا الحكم أيضًا، ومع ذلك مُنوا بالهزيمة في نهاية المطاف بعد نجاح مؤقت، وانمحى أثرهم للأبد. وعلى النقيض كُتب الفتح للمسيح الموعود عليه السلام مع أنه لم تُواتِه أية فرصة مادية للنجاح.

ثم هناك فرق آخر وهو أن المسيح الموعود عليه السلام قد أعلن دعواه في المواعيد التي أخبر عنها القرآن والحديث، أما الآخرون فبعضهم أعلن دعواه قبل هذه المواعيد وبعضهم بعدها. فكأن سهامهم كلِّهم طاشت ولم يصيبوا الهدف، أما حضرته عليه السلام فكان الوحيدَ الذي عرض دعواه على الناس في الوقت الصحيح. فقد ادعى "الباب" بالمهدوية، ولكنه أعلن دعواه قبل هذا الموعد بوقت طويل. ثم ادعى بعده "بهاء الله" ولكن دعواه أيضا سبقت هذه الأوان، ورغم أنه عاش بعد دعواه في هذه المواعيد، إلا أنه مات قبيل ظهور علامة الخسوف والكسوف الخاصة بالمهدي الموعود. وهذا يعني أن كل المدعين إما قد خلوْا قبل المواعيد المذكورة في هذه الشهادة أو وُلدوا بعدها، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد أعلن دعواه في الوقت الذي كانت تقتضي فيه أنباء القرآن والحديث أن يظهر فيه المدّعي من عند الله تعالى ويقوم بمهمة إصلاح الناس.

يقول البعض ما هو الرقيّ الذي أحرزه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية حتى نصدّق دعواه؟ فالجواب:

أولا: ليس هناك أي موعود ربانيّ توجد جماعته في كل قطر من العالم، أما جماعتنا فهي موجودة اليوم في بلاد لم يوجد فيها أحمدي واحد قبل ١٥ سنة، بل لم يصل إليها اسم الإسلام أيضًا.

وثانيا: لقد وفّق الله الأحمديين للعمل في سبيل خدمة الإسلام في بلاد لم يصل إليها أي فرد من أتباع المدعين الآخرين. خذوا مثلا بلاد غرب إفريقية، فأهلها كانوا يعيشون عراة ولا يعرفون ما العلم وما التهذيب وما التمدن، وعندما وصل إليها الدعاة الأحمديون دخل آلاف الآلاف من أهلها في نطاق "الناس" وأخذوا يعيشون حياة متمدنة. والحق أن مثل هذه الإنجازات العَملية هي التي تدل على حياة

الأمم.. أما توزيع المنشورات وحدها فلا قيمة له. وكما قلت لقد وفق الله تعالى جماعتَنا لإنجاز أعمال لم تُوفَّق لها جماعاتُ أي من المدعين الآخرين.

ومن علامات الازدهار التي ذكرها القرآن الكريم والتي نتميز بها بفضل الله تعالى دون جماعات المدعين الآخرين هو اجتماعنا في مركز واحد لكي لا يتشتت شملنا، ولكي نواصل مهمة التبليغ في العالم بجهود مكثفة موحدة. ليس للبهائيين -مثلاً- مركز حتى اليوم، ولكن يوجد لجماعتنا الإسلامية الأحمدية مركز وهو قاديان، حيث يزوره الآلاف كل سنة، ثم يرجعون إلى ديارهم بعد شفاء غليلهم العلمي والروحاني. إنه ذلك المركز الذي أوحي إلى المسيح الموعود عليه السلام بشأنه: "يأتيك من كل فج عميق، يأتون من كل فج عميق" (التذكرة ص ٣٩).. أي سيأتيك الناس من أماكن بعيدة بكثرة حتى تصير حُفرٌ في الطرق التي يأتون منها؟

وقد رأى المسيح الموعود عليه السلام في الرؤيا ازدهار قاديان، فقال: رأيت في الكشف أن قاديان قد أصبحت مدينة عظيمة جدا، وهناك أسواق تراها على مدى النظر. وهناك محلات رائعة عالية ذات طابقين أو أربعة أو أكثر من ذلك، ولها شُرفات مرتفعة يجلس فيها تجار ذوو بطون كبيرة يزينون السوق، وأمامهم أكوام من الجواهر واللآلئ والألماس والروبيات والدراهم والدنانير بحيث تتلألأ هذه المحلات المتنوعة ببضائع جميلة. وهناك عربات حصان واحد وعربات حصانين وعربات من قبيل Tomtom وFitton، وأناس كثيرون يمشون في السوق حتى تصطدم الأكتاف بالأكتاف بحيث لا يقدر المرء على المشي إلا بصعوبة. (التذكرة ص ٣٤٣).

كذلك أخبر الله المسيح الموعود عليه السلام أن الناس سيتركون أهل وطنهم ويهاجرون إلى قاديان (التذكرة ص٤٠-٤١). وطبقًا لهذه النبوءات قد هاجر الآلاف إلى قاديان وهي لا تزال في ازدهار متواصل. وإن ترك الوطن والمال والعقار والهجرة إلى بلد آخر لوجه الله تعالى فقط دليل على تضحية كبيرة. والأمة التي تتحلى بهذه التضحية لا تموت أبدا. وعلى النقيض لو ذهبتَ إلى عكّا والبهجة وجدتَ البهائيين هناك يصيدون الذُّبّان، ولا يزورهم من الخارج أحد. في طريقنا

إلى أوروبا ذهب بعض أصحابنا إلى عكا، فأخذ البهائيون هناك يطاردونهم ويقولون لهم بإلحاح: خذوا عِنَب قَبْرِ بهاء الله، فهي مباركة. وهذا يعني أن هؤلاء أصبحوا كمجاوري القبور عندنا في الهند، ويأتون بأعمال وثنية مثلهم. أما رقيهم فيمكن أن تقدّره مما حدث معنا هناك. فلما ذهبنا إلى عكا سألنا الناس عن مركز البهائيين، فأجاب كل واحد منهم: لا أعلم. فأخذتنا حيرة وقلنا: لقد وصلنا عكّا ولا نستطيع العثور على مركز البهائيين! وأخيرا وبعد جهد جهيد أخبرَنا شخص أنكم تسألون الناس سؤالاً خاطئا؛ إن البهائيين ليسوا معروفين هنا باسم البهائية، بل يُعرفون هنا باسم العجمية، حيث يسميهم الناس عجميين، فلو سألتم الناس عن مركز العجميين لفهموا قولكم. ثم أخبرَنا أن هؤلاء العجميين ليسوا في عكا، بل مركزهم في البهجة التي تقع على مسافة ٣ أو ٤ أميال خارج عكا. فوصلنا إلى البهجة بالسيارة ورأينا حال البهائيين. وعندها علمنا أنهم قد بدءوا الآن يكتبون أن مركزهم عكا لورود هذا الاسم في بعض الأنباء القديمة. والحق أن مركزهم ليس في عكا، بل خارجها بأربعة أميال تقريبا.

فرغم أن الباب والبهاء قد أعلنا دعواهما منذ سنوات وسنوات إلا أن الناس لا يعرفون أتباعهما على بعد أربعة أو خمسة أميال من مركزهم أيضا. أما نحن فبركة المسيح الموعود عليه السلام لو ذكر الأحمدي للناس اسمه عليه السلام لفهموا على الفور أن هذا من أتباع هذا الشخص. بل قد جعل الناس يسمّون المسلمين الأحمديين "ميرزائيين" نسبةً إلى اسمه عليه السلام: ميرزا غلام أحمد، أو يسموننا المولويين.. أي أصحاب العلم. أما كلمة عجمي فيستعملها العربي احتقارًا، ومعناها بالعربية الأمّي الجاهل. فهؤلاء البهائيون يسمَّوْن في منطقتهم عجميين (أي جاهلين)، وأما نحن فنُسمَّى مولويين أي علماء. لا شك أن جماعتنا لم تحرز الرقي المطلوب بعدُ، ولا نستطيع القول إننا قد فتحنا العالم، ولكن يقال في المثل: "الديك الفصيح من البيضة يصيح"، فإن وجود مركز لنا وانتشار جماعتنا في مختلف أقطار العالم وهجرة الآلاف من أوطانهم إلى قاديان، وتقدُّمنا المتواصل عددًا وعلمًا.. كل هذه دلائل على أننا سنفتح العالم كله في يوم من الأيام بإذن الله. لو فحصنا أحياء قاديان المختلفة لمعرفة عدد سكانها

القدامى والجدد لوجدنا أن سكانها الأصليين لا يتجاوزون ثلاثمئة شخص، وهم عائلتنا، أو سكان الحي المسمى بمحلّة (أرائين)، أما باقي سكان قاديان فكلّهم قد هاجروا إليها من الخارج، وأرى أن 1.5% فقط من أهلها هم من سكانها الأصليين. ثم يوجد بين هؤلاء المهاجرين مَن جاء مِن أفغانستان ومَن جاء من بورما، ومن هاجر من مالابار، ومن أتى من سريلانكا، وبعضهم جاء من السند، وبعضهم من البنغال، وغيرها من عشرات الأماكن والبلاد. وأرى أننا لو فحصنا جنسيات المهاجرين لوجدنا أن جنسيات أهل قاديان أكثر من جنسيات الذين جاءوا إلى لاهور من مناطق مختلفة. وهذا ليس بأمر عادي، بل إنه لأمر عظيم يشكل دليلاً قويًا على صدق الوحي الذي تلقاه المسيح الموعود عليه السلام: "يأتيك من كل فج عميق، يأتون من كل فج عميق". (التذكرة ص٣٩)

ثم إن الله تعالى قد نشر جماعتنا في شرائح مختلفة من المجتمع؛ فعندنا فلاحون بكثرة، وتجار بكثرة، وعلماء العربية بكثرة، وعلماء الإنجليزية بكثرة. فجماعتنا تنتشر في كل طبقة من المجتمع وكل شعبة من الحياة، ويتيسر لنا العاملون من كل مجال. ولكن هذا غير ميسر للبهائيين، إذ يوجد فيهم أناس من طبقة معينة، ولا يوجد عندهم أناس من كل الشرائح، وهذا دليل على أن طائفتهم لا تنتشر في شرائح المجتمع المختلفة، أي أنها تفتقر إلى ميزة الجماعات التي تتغلب على العالم. إن وجود بعض المثقفين الذين يجيدون النقاش في طائفة لا يكفي لحياة الجماعات الإلهية، بل لا بد لأتباعها من التحلي بروح التضحية والإيثار إلى أقصى حدّ ممكن والارتباط بمركزهم الديني وتكبُّدهم أنواع المشاقّ لنشر تعاليمهم، وأن يكونوا مصممين على تفضيل الموت على التخلي عن مبادئهم وتعاليمهم التي خرجوا يحملونها للعالم، وإن جماعتنا تتحلى بروح التضحية والإيثار والثبات بحمد الله تعالى، وليس عند البهائية مثال لذلك.

ثم إن هؤلاء القوم لم يوفَّقوا لنشر مبادئهم كما وُفّق دُعاتنا لنشر الإسلام والأحمدية. لقد خرج دعاتنا إلى كل أنحاء العالم يدعون الناس إلى الإسلام

والأحمدية، أما البهائيون فلا نظام عندهم للتبليغ، كما لا يخرج دعاتهم إلى البلاد الأخرى، ولا يتحلون بروح الدعوة والتبليغ.

كما لا يوجد عند البهائيين مثال للأعمال التي تنجزها جماعتنا. لقد عملت جماعتنا على النهوض بالشعوب الضعيفة ورفع مستوى الشعوب المتدنية ونشرِ التعليم والتهذيب والتمدن بينها، أما البهائيون فلا يوجد عندهم عُشْرُ معشارِ ذلك.

ثم من الناحية العددية فلا مقارنة بيننا وبينهم. فمع أنهم قد بدءوا العمل قبل جماعتنا بأربعين سنة إلا أنه لم ينضم إلى البهائية إلا بعض الأثرياء الذين سببوا في شهرتها. أما أكثرية الناس فلم تُقبِل عليها و لم تتوجه إليها. ثم إن هؤلاء القلائل أيضًا لم يميلوا إلى البهائية بروح التضحية في سبيل الله تعالى، وإنما سببه أن الأثرياء يتضايقون من القيود الدينية ويريدون أن يجدوا مخرجًا يضمنون به الانتماء إلى الدين مع التحرر من قيوده أيضا منغمسين في أنواع الملذات، ولذلك فلو وجدوا سهولة في أي دين انضموا إليه برغبة وشوق. والبهائية لا توجد عندها أية قيود دينية، إذ يقال لأتباعها: يجوز لكم أن تصلّوا وراء من شئتم، وتعملوا ما بدا لكم، فلن تسألوا عن ذلك أبدا؛ والنتيجة أن من يريد الجمعَ بين الدين والحرية المطلقة ينضم إليهم. فعندما سافرت إلى إنجلترا جاءت للقائي سيدة بهائية إنجليزية، وقالت: لماذا لا تؤمن ببهاء الله؟ قلت: دُلِّيني على شيء ينقص القرآن الكريم، لأنه ما لم تُثبتي أي نقص فيه، فلماذا أتوجه إلى غيره؟ قالت: أليس من النقص الكبير في القرآن أنه يجيز الزواج بأكثر من واحدة؟ قلت: لقد أجازه البهاء نفسه! قالت: هذا كذب، إنه لم يُجزِ ذلك أبدا. وكانت معها سيدة بهائية إيرانية وكانت قد رجعت بعد أن مكثت فترة من الزمن عند ميرزا عباس علي، فقلت: اسألي صاحبتك الإيرانية هذه أصحيح ما أقول أم لا. فسألَتها، فأجابتها إجابة ملتوية فقالت: صحيح أن البهاء قد قال في كتبه بجواز التعدد، ولكنه قال أيضًا إن الشرح الصحيح لكلامه هو ما يقدّمه ميرزا عباس علي، وقد شرح عباس كلامَ البهاء هذا أنه ينبغي الزواج بواحدة فقط. فقلت: أمِن المعقول أن يجيز البهاء الزواج باثنتين ثم يقال إن المراد بالاثنتين واحدة؟ فقالت الإنجليزية: نعم، هذا صحيح، ما دام ميرزا عباس قال في الشرح أنه يجب

الزواج بواحدة فقد قُضي الأمر. فقلتُ: حسنا، ألم يقل البهاء لعباس أن يتزوج امرأة أخرى من أجل الولد الذكر؟ قالت: هذا محال. قلت: اسألي صاحبتك الإيرانية. فسألتها، فأجابت: لكن عباس علي لم يرضَ بذلك. قلتُ: إذا كان لم يرض بقول البهاء فهو عاص، إذ لم يطع أباه الذي هو مظهر الله. فقالت السيدة الإنجليزية: ما دام قد رفض فقد قُضي الأمر، ومهما كان قول البهاء في كتبه، فالزواج بالثانية حرام ما دام عباس رفض قوله. قلتُ: حسنا، ألم يكن للبهاء زوجتان؟ قالت: كلا. قلت: اسألي صاحبتك الإيرانية. فلما سألتها قالت لي: لماذا أُســـأل أنا؟ فقلتُ لها: لقد مكثتِ عند عباس علي، ولكن صاحبتك الإنجليزية تجهل هذه الأمور، فما الحرج في أن تخبريها بذلك؟ فقالت: الواقع أنه كانت عند البهاء امرأتان قبل الدعوى، ولكنه اعتبر إحداهما أختًا له بعد الدعوى. فقفزت السيدة الإنجليزية بسماع قولها وقالت لي: أسمعتَ الجواب؟ قلتُ: أنت تؤمنين أن البهاء كان مظهر الله وكان يعلم الغيب منذ طفولته، وإذا كان يعلم سلفًا أنه سيضطر لاعتبار إحدى زوجتيه أختًا له فلماذا تزوّجَها أصلاً؟ فقالت: ما دام البهاء اعتبر إحداهما أختًا فهذا يكفي. قلت: حسنًا، اسألي زميلتك الإيرانية: أيجوز إنجاب الأولاد من الأخت في البهائية، وإذا لم يكن جائزا فلماذا أنجبت أختُ البهاء هذه أولادًا منه بعد دعواه؟ فقالت السيدة الإنجليزية في حماس: لقد بدأتَ تسبّنا. قلتُ: هذا ليس سبًّا، بل هو بيان للحقيقة؛ فاسألي صديقتك: أأنجبت زوجة البهاء الثانية أولادا منه بعد دعواه أم لا؟ هذه المرة ظلت الإيرانية صامتة بعض الوقت، ولكنها أقرّتْ في الأخير أن الزوجة الثانية أنجبت الأولاد من البهاء بعد الدعوى أيضا. فقلتُ للسيدة الإنجليزية: الآن يمكنك أن تعرفي لماذا نؤمن بالقرآن الكريم ولا نصدق البهاء في دعواه. لا يمكن أن نصدّق البهاء إلا إذا كان القرآن لا يسدّ حاجاتنا الدينية والبهاءُ يسدّها. وما دام البهاء غير قادر على سدّها، وطالما ليست هناك ضرورة دينية لا يسدها الشرع الإسلامي، فلماذا نترك شرع القرآن ونقبل ما قاله البهاء؟

باختصار، يعتبر البهائيون شرع الإسلام منسوخًا ويقدّمون أمام العالم شرعًا منحولاً جديدا، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد بُعث ليحيي الإسلام ويقيم شريعته

في العالم. فلقد أوحى الله إلى المسيح الموعود عليه السلام: "يُحيي الدين ويقيم الشريعة" (التذكرة ص ٥٥).. أي قد جاء المسيح الموعود لإحياء الإسلام وإقامة شريعته في العالم ثانية. وقد قام بهذا الهدف وجمَع حوله مئات الآلاف. أما البهاء فكل ما فعله أنه أعلن نسخ كثير من أحكام الإسلام، أو حلل كثيرا من الأمور ليسهّل على الناس، ومع ذلك لم يؤمنوا به. ينطبق على البهائيين المثل الشائع عندنا بالأردية: (الشافعي من كل شيءٍ معْفي).. أي كنْ شافعيًا ستُعفى من كل شي. هذه هي ديانة البهائيين. إن إدارةَ حركةٍ كهذه في الدنيا سهلٌ، أما تبديل حياة الناس كليةً بحيث يتغير صباحهم ومساؤهم، ونهارهم وليلهم، ولباسهم وفراشهم، وطعامهم وشرابهم، وظاهرهم وباطنهم، ودينهم وسياستهم، وتعليمهم وحضارتهم، في ظل معارضة العالم كله، فهذا هو العمل الحقيقي. وهذه المهمة لم ينجزها في الألفي سنة الماضية إلا محمد رسول الله ﷺ، والآن تلميذه المسيح الموعود عليه السلام.

إذًا، لا توجد أمارات الرقي والازدهار إلا في جماعة المسيح الموعود عليه السلام. إنه هو المسيح والمهدي للعالم، وهو المخلص المنقذ للدنيا، وهو المبعوث الموعود الذي ظهر في التواريخ التي بيّنها محمد رسول الله ﷺ وذكرها القرآن الكريم.

## أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٧﴾

**التفسير:** لا يراد بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ رؤية العين، بل يراد به رؤية القلب أو رؤية العلم. هذا تعبير قرآني خاص، ومثاله الآخر قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، مع أن حادث أصحاب الفيل قد وقع قبل مولده ﷺ، وهو لم يرَ من أحوالهم شيئا، والمعنى: أعَلِمتَ ما فعل الله تعالى بأصحاب الفيل؟ كذلك قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ يعني ألم تعلم ما فعل الله بعاد؟ أو المعنى: ألا تتعظ بأحوالهم؟ علمًا أن الخطاب أحيانا يكون بصيغة الواحد ويُراد به الجماعة، كذلك لا يراد هنا الرسول ﷺ، بل كل المسلمين وكل العالم.

أما عاد فهو اسم قبيلة قد مَرَّ ذكرها بالتفصيل عند تفسير الآية ٥١ من سورة هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ في المجلد الثالث من التفسير الكبير.

يقول الأوروبيون إنه لا أثر لهذه القبيلة في الآثار القديمة بين الحفريات التي تمّت في البلاد العربية، ولكن لا يمكن الأخذ بقولهم هذا كدليل، للأسباب التالية:

أولا: لا يعني نجاحهم في العثور على بعض المواقع الأثرية أنهم قد اكتشفوا كل المواقع الأثرية في الجزيرة العربية، إذ لا يسمح للأوروبيين بدخول هذه المنطقة. أما المناطق التي استولوا عليها، فلا شك أنهم قد نقّبوا فيها عن بعض الآثار الموجودة هناك، ولكن عدم عثورهم على أثر "عاد" فيها لا يعني أنهم قد بحثوا في كل المواقع الأثرية ولم يتركوا واحدا منها بدون فحص. إن الإنجليز مثلاً يحكمون الهند منذ ثلاثة قرون، ومع ذلك لم يستطيعوا العثور على كل الآثار الدفينة هناك. لقد عثروا قبل ٣٠ أو ٤٠ سنة على مدينة (تَيكْسلا) عاصمة الملك الهندي الكبير (أَشَوكا). قبل حوالي ٤٠ سنة بدأوا الحفر في مكان يسمّى "شاه دي دَهيري".. أي تلّ الملك، فخرجت من تحته مدينة "أشوكا" وقصوره، مع أنهم قبل هذا الانكشاف كانوا يدّعون أن عاصمته في "البَنْغال" أو في "البهار". وهذا يعني أن أحواله كانت خفية عنهم ولم يعرفوا عاصمته أيضا، وبالصدفة حفروا مكانًا فعثروا على قصوره وغيرها، مع أنه ملك كبير حكم الهند كلها في زمنه. كما اكتُشفت آثار قديمة في منطقة في السند تسمى باللغة السندية (مَوهَنْجَودَيرو) – وبالأردية (مَنْجَو دَهاروا) – وهذه الآثار تدل على حضارة قديمة جدا يقال إنها أقدم من حضارة (أشوكا). لم يكن أهل السند يعرفون عن هذه الآثار شيئا، بل حفروا المكان صدفة، فخرجت من تحتها آثار هذه الحضارة التي يقال إنها تعود إلى ١٢ ألف عام. والقاعدة أنهم كلما عثروا على آثار قالوا إنها آثار أقدم حضارة في العالم. وقبل أيام عثروا على مكان بالقرب من "جيكب آباد"، فقالوا إنها أقدم هذه الآثار كلها. فترى أن الإنجليز يحكمون هذه البلاد منذ قرون، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يكملوا الحفريات هنا، فكيف يقولون إنهم قد أكملوا الحفريات في الجزيرة العربية كلها؟ فادعاؤهم أنهم لم يعثروا على قوم باسم "عاد" في الحفريات باطل. كل ما يمكن قوله هو أن

الحفريات التي قام بها هؤلاء الأوروبيون لم يُعثر فيها على قوم باسم عاد، ولا يمكن القول إنه لا وجود لهم مطلقا. لو قال شخص جالس في الصين ليس هناك منطقة في العالم اسمها إفريقيا، فلا يفهم من قوله أن لا وجود لأفريقيا، وإنما يقال إنه لم يزرها.

وثانيا: قد ذكر القرآن في الآية التالية قوم عاد باسم (إرَمَ)، مما يعني أن عادًا ليس اسم قبيلة واحدة، بل هو اسم عدة قبائل، وبالتالي كانت كل قبيلة منها في فترة حكمها لهذه البلاد تكتب اسمها الخاص وليس اسمَ مجموعة هذه القبائل كلها. ولذلك فقولهم بعدم العثور على اسم (عاد إرم) في الآثار باطل. الحق أننا إذا وجدنا اسم قبيلة عربية قديمة سنعتبرها من قبائل عاد، لأن العرب يرون أن فضل حضارتهم القديمة يعود لعاد.

ثالثا: ومن الدلائل القاطعة على وجود عاد أن الجغرافيين اليونانيين قد كتبوا أن قبيلة باسم (ايدراميتاي) كانت حاكمة على اليمن قبل الميلاد. والواضح تمامًا أنه اسم محرف من (عاد إرم). لقد زعم المستشرقون أن (ايدراميتاي) ليس اسم عاد، بل اسم حضرموت. ولكنه زعم باطل للأسباب التالية:

فأولا: (ايدراميتاي) اسم قبيلة، وأما حضرموت فاسم مدينة.

وثانيا: هناك اسم آخر لحضرموت عند الجغرافيين اليونانيين، حيث إن الكتب اليونانية التي وردت فيها كلمة (ايدراميتاي) يوجد فيها اسم مدينة حضرموت أيضًا هكذا: ايدراموتي تاي (ADRAMOTITAI). واسم حضرموت هذا موجود في الكتب اليونانية واللاتينية كلتيهما. فلا ندري كيف اعتبر المستشرقون هذين الاسمين اسما واحدا، مع أن أحدهما اسم مدينة والآخر اسم قبيلة، وهجاؤهما مختلف. وكلمة (ايدراميتاي) الواردة عن (عاد إرم) أصلها (ايدرامي).. أما لفظ (تاي) الوارد في الأخير فهو علامة للاسم اليوناني. والظاهر أن (إيد) هو عاد و(رامي) هو إرم. ولا يوجد أية قبيلة عربية مشابهة لهذا الاسم إلا عاد إرم.

ويقول جرجي زيدان المؤرخ المسيحي المعروف في تاريخه "العرب قبل الإسلام": لم تقدر مئات الصفحات من كتب المؤرخين أن تُمِدّ الناس بمعلومات أكثر مما قدّمه القرآن الكريم عن قوم عاد في كلمات وجيزة.

وبقراءة كل الروايات القديمة التي تروى بهذا الصدد لا يسع الإنسان إلا أن يقول إن كل ما ورد في الكتب التاريخية القديمة من معلومات عن عاد إرم هو لغو وعبث، إلا الذي بيّنه القرآن الكريم. (العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان)

هذا المؤرخ المسيحي عدو لدود للإسلام ومع ذلك اضطر للإقرار بفضل القرآن الكريم فيما يتعلق بتاريخ عاد إرم.

يبدو من القرآن الكريم أن هذه القبيلة كانت قوية جدا، إذ قال الله تعالى بعد آيتين: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾.

ويظهر من القرآن الكريم أيضا أن عادًا كانوا مقيمين في الأحقاف. والأحقاف منطقتان في الجزيرة العربية؛ إحداهما تسمى "الأحقاف الجنوبية"، وهي تبدأ من اليمن حيث تمرّ من تحت صنعاء إلى عدن، ثم إلى الشرق مائلا إلى الشمال. والثانية تسمى "الأحقاف الشمالية" التي تبدأ من تحت بُصرى وتصل إلى برية العراق. إذن، فالأحقاف كانت قد أحاطت بالجزيرة العربية، كانت إحداهما في الجنوب، والثانية في الشمال حيث تقع نجد والحجاز.

والأحقاف تطلق على تلك التلال الرملية الممتدة ارتفاعا وانخفاضا. ويتضح من القرآن الكريم أن عادا كانوا يسكنون في المناطق التي فيها الأحقاف الآن، حيث قال الله تعالى ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾(الأحقاف:٢٢). ويتضح من ذلك أنهم كانوا ذوي نفوذ وقوة في شمال الجزيرة وجنوبها، أو في المناطق التي تسمى الأحقاف الجنوبية والأحقاف الشمالية. ويتضح من الروايات الواردة في التاريخ أن هؤلاء انتشروا من الجنوب إلى الشمال، والدليل على ذلك أن ثمود –وهم قبيلة من عاد–كانت تحكم في آخر زمنها شمالي الجزيرة العربية وجنوب فلسطين، وهناك توجد آثارهم أيضا، فمن مدنهم الحِجْر الواقعة بين المدينة المنورة وتبوك.

هؤلاء القوم كانوا بعد نوح عليه السلام مباشرة، إذ نقل القرآن الكريم قول نبيهم لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف:٧٠). يبدو من ذلك أن عادًا هي الأمة التي كانت على صلة مباشرة بنوح عليه السلام والتي صارت غالبة على الجزيرة العربية بعد قومه.

يبدو أنه كان بين الأمم التي خرجت من بابل وانتشرت بعد دمارها المذكور في التوراة – وهو دمار قوم نوح – قبيلةٌ اسمها عاد ازدهرت كثيرا بعدها. وقد كانت هذه القبيلة قوية خلقةً وتناسلاً كما يبدو من قول نبيهم هود عليه السلام لهم: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾(الأعراف: ٧٠)، والمراد من الخَلق هنا البِنية الجسدية والنسل؛ وعليه فيمكن القول إن أجيال العمالقة المقيمين في شمال الجزيرة كانوا من بقايا عاد.

كما يبدو أن مرض الشرك كان متفشيا فيهم على نطاق واسع، إذ قال لهم هود عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٦٦).. ولما كان قوم نوح عليه السلام منغمسين في الشرك أيضا، فيبدو أنهم وقعوا في الوثنية متأثرين من قومه عليه السلام.

وكانوا يبنون مباني شاهقة، ولذلك سُمّوا ﴿ذات العماد﴾ في الآية التالية من هذه السورة.

كما يخبرنا القرآن الكريم أنهم أُهلكوا بريح هبّت عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتالية. وأخبر أيضا أن الدمار شملهم بحيث لم يبق لهم أثر كقوم؛ قال الله تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ﴾(الأحقاف:٢٦).. أي اندثر أثرهم كليًّا، و لم يبق منهم إلا بناياتهم الضخمة.

كم هي عظيمة هذه النبوءة القرآنية التي تحققت أيضا. يزعم المؤرخون الأوروبيون أنهم لا يجدون اسم عاد في الآثار، ولكنهم لا يفكرون أن القرآن نفسه يقول: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ﴾.. أي لم تبق منهم إلا بناياتهم فلن تروا اسمهم في الآثار، لأننا محوناه تماما. فإذا كان هؤلاء يقولون في بحوثهم أنهم لا يجدون اسم عاد في الآثار القديمة، فنقول لهم إن هذا دليل على صدق القرآن الكريم الذي أخبر سلفًا أنكم يمكن أن تجدوا أنقاض مبانيهم بعد فحص الآثار القديمة، ولكن لن تعثروا على اسمهم فيها. فقولهم هذا لا يقدح في صدق القرآن، بل يدعمه ويؤيده.

كان هود عليه السلام رسولاً إلى عادٍ. وقد ذُكروا في القرآن الكريم في سبع عشرة سورة: الأعراف، التوبة، هود (٤ مرات)، إبراهيم، الحج، الفرقان، الشعراء، العنكبوت، ص، غافر، فصلت (مرتان)، الأحقاف، ق، الذاريات، النجم، القمر، الفجر.

وهكذا فقد ذكرهم القرآن الكريم ٢١ ✪مرة.

وقد سبق أن ذكرت رأي أحد المؤرخين المسيحيين أن من المحال أن نجد ذكر هؤلاء القوم في أي تاريخ من الدنيا بصورة أصح وأكمل مما ذكره القرآن الكريم.

## إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾

**شرح الكلمات:**

**العماد:** الأبنية الرفيعة، الواحدة عمادة. (الأقرب)

فالمراد من (ذات العماد).. القبيلة ذات الأبنية الرفيعة.

**التفسير:** لفظ (إرم) عطف بيان على عاد. وهناك ثلاثة آراء عن إرم، فقال بعضهم: إرم اسم قبيلة، والحديث هنا يتعلق فقط بقبيلة إرم من قوم عاد. وقال بعضهم: إرم اسمُ مدينتهم، فيقرأون بعادٍ إرمَ، بدلاً من عادٍ إرمَ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾. ومرادهم: ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ الذين كانوا مقيمين في إرم. وقال بعضهم: إن إرم اسم مدينة بلا شك، والمراد إرمَ ذاتِ العماد.. أي مدينة إرم التي كانت فيها أبنية شاهقة. (البحر المحيط)

يبدو من القرآن الكريم أن هؤلاء كانوا يبنون بنايات شاهقة ضخمة، حيث قال لهم هود ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(الشعراء:١٢٩-١٣٠).. أي تبنون على كل جبلٍ مبانيَ رائعة وتنشئون مصانع ضخمة ظانين أنها ستحفظكم من حوادث الدهر، ولن تتعرضوا للفناء.

إذن، فالبنايات الضخمة خصوصية مميزة لهذه القبيلة.

## ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾

**التفسير:** أي لم يكن قبلهم قوم في مثل قوتهم.

---

✪ يبدو أن سهوًا حصل هنا، حيث ذُكر عاد في سورة الأعراف مرتين لا مرة واحدة، كما فات هنا أنهم ذُكروا في سورة الحاقة أيضًا مرتين، وهكذا يصبح المجموع ٢٤ مرة. (المترجم)

قد وردت في القرآن الكريم كلمات مماثلة عن مختلف الشعوب، ويعترض عليها البعض: كيف يقال عن كل هذه الأقوام والشعوب أنهم لم يوجد لهم مثيل من قبل؟ يمكن أن يقال عن شعب واحد أنه لم يوجد له مثيل، ولكن لا يقال هذا عن كل الشعوب.

وليكن معلوما أن قوة قوم تُقارَن أحيانا بقوة أهل بلد أو بقوة شعب، وأحيانا تقارن بشعوب العالم كله. ولو كان هذا الحديث عن عصر بدائي جدا فيكون المراد من قول الله تعالى ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾.. أنه لم يتمتع أي قوم قبلهم بمثل قوتهم. أما إذا كان الحديث عن عصر كانت فيه شتى الشعوب منتشرة في الدنيا وقامت حكومات شتى في بلاد شتى لأقوام مختلفة، فستعني هذه الكلمات: لا يوجد في هذا البلد قوم يتمتعون بمثل قوتهم. وهذا يعني أن مثل هذه التعابير تشير إلى فضل نسبيّ لا فضل كليّ، وعلى المرء أن يُعمِل عقله لتحديد المراد الحقيقي. نعم، إذا كان الأمر يتعلق بالإيمانيات فالأمر مختلف؛ إذ يستخدم الله عندها مثل هذه التعابير مع قرائن تساعد على التوصل إلى النتيجة الصحيحة فيما إذا كان الفضل جزئيا أو كليا. فمثلا كان الرسول ﷺ مبعوثًا إلى العصور كلها، وهو نبيّ مُطاع للناس أجمعين إلى يوم القيامة، وهذا الأمر يتعلق بالإيمان، فكل من لم يؤمن بفضله ﷺ كان مجرما وآثما عند الله تعالى، ولذلك حيثما قال الله تعالى إنه ﷺ نبي عالمي، ذكر معها قرائن تؤكد أنه مبعوث لكل العصور ولكل البلاد، وأن نبوته ليست مختصة بعصره كنبوة الأنبياء السابقين. أما إذا قال الله تعالى بفضل مادي لقوم، فمن واجب الإنسان أن يُعمل عقله ليعلم ما إذا كان هذا التعبير يدل على فضل نسبي أم كليّ؛ ومثاله أن القرآن يستخدم دائما كلمات ذات معان متنوعة، والعاقل يدرك أي المعاني تنطبق في مكان وأيها لا تنطبق. فأحيانا يكون للكلمة أربعة معان، وينطبق في السياق منها اثنان فقط، ويعرف الإنسان بعقله أيهما ينطبق. والقرآن لا يذكر قرائن ترجح معنى على آخر إلا حين يؤدي الخطأ البسيط في تعيين المعنى إلى فساد الإيمان. ومثاله قول الله تعالى في بداية سورة الطارق ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.. ولما كان الطارق له معنيان: القادم ليلا، أو نجم الصباح، ومن الممكن أن يؤدي

لفظ ﴿الطارق﴾ إلى شبهة، فأزالها الله تعالى بقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾، وبيانه أن السور السابقة تتنبأ عن مجيء نبي، فكان لزاما إلقاء الضوء على مكانته فيما إذا كان كطارق الليل أم كنجم الصباح، فلذا قال الله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، مبينًا أن الطارق لا يعني هنا إلا النجم الثاقب. فمن أسلوب القرآن الكريم أنه إذا أراد تحديد معنى كلمة أردفَها بقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾.. أما إذ سمح باختيار أي معنى مناسب مفوضا الأمر إلى عقل الإنسان فلا يحدد معنى كلمة ما دام اختيار أي معنى لها لا يؤدي إلى خلل، أما إذا كانت هناك إمكانية لأي خلل أخبر الله بالمعنى المقصود هناك. ومثاله قول الله تعالى في مستهلّ سورة القارعة: ﴿الْقَارِعَةُ ۞ مَا الْقَارِعَةُ ۞ وما أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.. حيث بين تعالى أن للقارعة معاني عديدة، ولكنا نخبركم أننا نعني هنا المعنى الفلاني دون غيره. أما إذا لم يكن هناك مجال شبهة، أو لم يكن الأمر يؤدي إلى نقص في الإيمان، فيترك الله تعالى الأمر في يد الإنسان ليختار المعاني المناسبة بحسب أساليب اللغة وعقله.

وهذا هو حال قوله تعالى ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾.. إذ لا يتعلق الأمر هنا بالإيمان أو بنبأ غيبي يُخشى أن يخطئ فيه الإنسان، ولذلك قال القرآن بشكل عام لم يُخلَق لهؤلاء القوم نظير في القوة والشوكة. ومن واجبنا الآن أن نرى.. بناء على العقل وشهادة التاريخ.. ما إذا كان هذا القول يخص عصرهم أو الدنيا كلها. ولما كانت عادٌ من الشعوب القديمة جدًا، فنستطيع القول أن الله تعالى لم يذكر فضلهم هذا إزاء شعوب العالم كله، بل إزاء أهل عصرهم أو إزاء باقي العرب، فقال: لم يُخلَق قوم مثلهم في عصرهم أو بين العرب.

إن من محاسن القرآن الكريم أنه يترك كثيرا من الشروح والتفاسير للعقل الإنساني كيلا يصدأ ويضعف. إنه لا يجعل الناس جهالا، بل إذا كانت هناك إمكانية شبهة أزالها، وإذا كان هناك إمكانية خلل في الإيمانيات كشف الأمر تماما منعًا للناس من العثار وحفظا لإيمانهم.

وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩

**شرح الكلمات:**

**جابوا:** جابَ الثوب يجوبه جَوبًا: قطَعه. وجابَ الصخرة: خرَقها، ومنه في القرآن: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾.. أي قطعوه واتخذوه منازل. (الأقرب)

**الصخر:** جمعُ الصخرة، وهي الحجر العظيم الصَلب. (الأقرب)

فالمراد من قوله تعالى ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾.. أنهم قطعوا الجبال وجمعوا الصخور وبنوا بها بيوتهم في الوادي، أو أنهم خرقوا الجبال في الوادي الجبلي وبنوا في تلك الجبال مبانيهم.

**التفسير:** من خصائص قوم عاد أنهم كانوا يقطعون الجبال ويبنون المساكن. كانت عاصمتهم الحِجر الواقعة بين المدينة المنورة وتبوك. لما خرج النبي ﷺ في غزوة تبوك كان معه آلاف الصحابة، فمرّوا في موقع مدينة (الحِجر) ونـــزلوا هناك بعض الوقت، وأخذوا يعجنون دقيقهم بمائها، وفيما هم في ذلك إذ أعلن الرسول ﷺ أن هذا المكان قد نـــزل عليه عذاب الله في الماضي فلا تشربوا من مائه ولا تستعملوه. فقد ورد في الحديث عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ لَمَّا نـــزلَ الْحِجْرَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَمَرَهُمْ أَنْ لا يَشْرَبُوا مِنْ بِئْرِهَا وَلا يَسْتَقُوا مِنْهَا. فَقَالُوا قَدْ عَجَنَّا مِنْهَا وَاسْتَقَيْنَا، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَطْرَحُوا ذَلِكَ الْعَجِينَ وَيُهَرِيقُوا ذَلِكَ الْمَاءَ. (البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء)

انظروا كم يخاف أنبياء الله غضبه، فمع أن هؤلاء القوم الذين نـــزل عليهم غضب الله هلكوا منذ قرون، وصارت مدينتهم أنقاضا، إلا أننا نجد النبي ﷺ وكأنه يرى غضب الله نازلاً هنالك في ذلك اليوم، ويرى ملائكةَ الله تلعن حتى ذلك اليوم، فلا يرضى أن يستعمل صحابته العجين الذي عجنوه بماء ذلك المكان، فأمرهم أن يطرحوا عجينهم ويركبوا مطاياهم ويخرجوا من هناك فورًا، لأنه مقام قد حلّ به غضب الله تعالى. أما الأماكن التي تنـــزل بها آية رحمة الله تعالى فإن

أنبياء الله يعظمونها جدا، وكلما مرّوا بها استولت عليهم خشية الله، فلا ينظرون إلا إلى ذات الباري ﷻ. بينما نجد قلوب الناس لا تُلينها آياتُ غضب الله، ولا تولّد آياتُ رحمته فيها حُبَّه ﷻ. فمثلا تُسمّى المساجد بيوت الله، وهي أماكن مخصوصة لعبادة الله، ولكن الناس حين يحضرونها ينهمكون في الكلام الفارغ، ويتخاصمون في أمور الدنيا، ويسب بعضهم بعضًا من فورة الغضب، ويغتاب بعضهم بعضا، دون أن يشعروا أنهم يرتكبون هذه المنكرات جالسين في بيوت الله. كان ينبغي عليهم وهم جالسون في المساجد أن تكون ألسنتهم تلهج بذكر الله تعالى، ولكنهم يضيعون أوقاتهم في ذكر الدنيا بدل ذكر الله، وهكذا يثيرون سخط الله عليهم. أما الرسول ﷺ فتراه قد كَرِهَ المكانَ الذي حلّ فيه غضب الله وفرَّ منه، وأمر أصحابه بإلقاء العجين الذي عجنوه بماء ذلك المكان ولم يرضَ أن تدخل لقمة واحدة منه في بطن أيّ منهم، وذلك برغم أن تلك الأيام كانت أيام ضيق شديد وكان الصحابة يمرّون بوضع مالي صعب جدا، حيث ذكروا أنهم كانوا يعيشون على تناول نوى التمر أحيانا (مسلم: الصيد والذبائح). ومع ذلك أمر الرسول ﷺ بطرح مئات الكيلوغرامات من العجين، غير مكترث لما سيتعرض له الجيش المسلم. وقد رافقه في تلك الغزوة ٣٠٠٠ صحابي، ولو قدّرنا أن كل صحابي كان يأكل ربع كيلوغرام، فيصبح مقدار العجين حولي ٨٠٠ كيلوغرام. ومع ذلك أمر الرسول ﷺ بطرحه في وقت لم يتيسر لهم فيه الزاد الوفير. (زاد المعاد: الجهاد والمغازي)

هذه هي خشية الله التي يجب أن تكون القلوب عامرة بها، والتي يأمر الإسلام كل مؤمن بالتحلّي بها. ولكنني أقول بكل أسف أن بعضا من جماعتنا يذهبون إلى (بَهِشْتِي مقبرة✪) للدعاء على قبر المسيح الموعود عليه السلام، فيبدءون في قطف الثمار

---

✪ معناها: مقبرة أهل الجنة، أسسها المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام بناء على رؤيا رآى فيها مقبرة وقيل له إنها مقبرة أهل الجنة فسماها بهذا الاسم. ثم وضع شروطا لمن يدفن فيها: أبرزها – بعد تحليه بالتقوى وتجنبه المحرمات وأعمال الوثنية والبدعة – أن يقدم من عُشر إلى ثُلث دخله من أجل نشر الإسلام وتبليغ أحكام القرآن أثناء حياته، ويوصي بأن يُدفَع بعد موته عُشْرُ تركته على الأقل للجماعة للغرض نفسه. (المترجم)

من الأشجار وأكلها. وهذا يعني أنهم بدلا من أن تستولي خشية الله على قلوبهم هناك ويركّزوا على الدعاء يشغلهم الأكل والشرب. كذلك يتكلم بعضهم في المساجد ويثيرون فيها ضجة عالية حتى يستغرب المرء ويتساءل: لماذا لم يفهموا بعدُ أنَّ عليهم احترام المساجد وذِكْر الله تعالى بدلاً من الحديث الفارغ؟

إن العلامة الحقيقية لإيمان المؤمن أنه حين يمرّ بمكان يذكِّر بعذاب الله فلا تظهر من أعضائه وجوارحه أية جسارة، بل تكون خشية الله مستولية على قلبه، ويرى بعينه عذاب الله كما رأى النبي ﷺ عذاب الله الذي حلّ بالحِجر. وكذلك حين يحضر إلى المسجد أو إلى أي مكان ظهرت فيه آية من آيات الله فلا يتكلم بلغو الكلام، بل يذكر الله تعالى، ويصلي ويشتغل بالدعاء، ساعيًا لاجتذاب فضل الله تعالى أكثر وأكثر، وإذا لم يكن له بد من الكلام، فيتكلم في أمور الدين فقط؛ كما نجلس في مساجدنا ونتكلم في أمور الدين دائما أو نتكلم في أمور دنيوية ذات صلة بالدين، ولكن ينبغي ألا نتكلم في المساجد عن البيع والشراء أو الخصومات العائلية، أو أن يغتاب أحدنا الآخر، فهذا عيب شديد يجعل الإنسان آثما عند الله تعالى. ضعوا في الحسبان دائمًا أسوة الرسول ﷺ هذه، فإنه حين نـــزل بالحجر قام مذعورا بعد قليل وأمر أصحابه بالرحيل، إذ نـــزل هناك غضب الله في الماضي.

كان صالح عليه السلام نبيًّا لثمود. وكلمة صالح عربية، مما يدل على أنه عليه السلام كان نبيا من العرب. كما يتضح من القرآن الكريم أن ثمود كانوا بعد عاد، فقد قال الله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾(الأعراف:٧٥)، ويُستنتج من ذلك أن عادا كانوا عربا أيضا.

لقد عثر العلماء الأوروبيون أثناء بحثهم عن الآثار على ألواح كتابية أثرية، وقد أقرّوا أنهم قد عثروا عليها في شمال الجزيرة العربية، وهذا يؤيد رأي الجغرافيين العرب أن ثمود هاجروا من جنوب الجزيرة إلى شمالها. يتضح من هذه الآثار أن هؤلاء القوم تقدموا إلى مصر أيضا. باختصار، إن ثمود كانوا بعد عاد، وحيث إن

عادًا قد اعتُبروا خلفاء قوم نوح، فثبت من ذلك أن نوحا قد بُعث في منطقة من المناطق العربية، وبالتالي فقد وجدنا دليلا آخر على أن العربية أم اللغات.

يعلن القرآن الكريم أن اللغة الأولى للبشر هي العربية، وهي أم اللغات كلها. وبغض النظر عن إنكار الخصم لهذا، إلا أن القرآن يعلن هذا. ومما يؤكد هذه النظرية أن القرآن الكريم قد اعتبر نوحًا بُعث بعد آدم مباشرة، ولو ثبت بعد ذلك أن نوحا كان عربي الأصل، فقد ثبت أن العربية أم الألسن. لقد بيّنا من قبل أن ثمود كانوا خلفاء عاد، وكان عاد خلفاء قوم نوح، وحيث إن ثمود وعادا كلتيهما أمتان عربيتان، فثبت أن نوحا عليه السلام بعث في المنطقة العربية، والثابت تاريخيا أن نوحا بُعث في العراق. وحيث إن اللغة العربية قد ثبتت صلتها بنوح، فقول الله تعالى أن نوحا بُعث بعد آدم مباشرةً يدل أن لغة الناس في البداية كانت عربية، لأننا إذا اعتبرنا بداية النسل الإنساني من الجزيرة العربية، فلا بد من اعتبار لغة هذه البلاد أم اللغات.

باختصار، يُستنبط من هذه الآيات بداية الحضارة بالجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها، والأحداث التاريخية تؤيد هذا.

قد ورد ذكر ثمود في القرآن الكريم في ٢١ سورة، وهي:

الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الإسراء، الحج، الفرقان، الشعراء، النمل، العنكبوت، ص، غافر، فُصّلت، ق، الذاريات، النجم، القمر، الحاقة، البروج، الفجر، الشمس.

ولمعرفة أحوال ثمود وصالح عليه السلام وأخبارهم المفصلة يُراجَع تفسير الآيات ٦٢ إلى ٦٩ من سورة هود في المجلد الثالث من التفسير الكبير.

## وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٢﴾

**شرح الكلمات:**

**الأوتاد:** جمعُ الوتد، وهو ما رُزَّ في الأرض أو الحائط من خشب. أوتاد الأرض جبالُها، وأوتاد البلاد: رؤساؤها، وأوتادُ الفم: أسنانه. (الأقرب)

**طغَوْا**: طغى فلانٌ: أسرفَ في المعاصي والظلم. (الأقرب)

**التفسير**: ترسم لنا هذه الآيات حضارة فرعون وقومه، حيث بين الله تعالى إحدى خصائصهم أنهم كانوا يبنون مباني ضخمة شاهقة جدا. والمبنى الشاهق لا بد له من أساس عميق يصل إلى الأرض كالوتد. وبالفعل فإن المباني المصرية القديمة عالية جدا، وأهرام مصر لا مثيل لها في الارتفاع والعظمة.

ومن معاني (ذي الأوتاد) أن فرعون كان صاحب خيام، أي أن بلاده كانت في عصره متمدنة جدا، فكانت عندهم مرافق كثيرة، ومبان شاهقة، كما كانت فيها طرق طويلة وسفن للسفر لمسافات شاسعة، فكان الملك يجوب البلاد دائما لتفقُّد أحوالها. علمًا أنه إذا قيل عن مَلِكِ بلدٍ لا يكون فيه مبان كبيرة أنه ذو الأوتاد، فمعنى ذلك أن قومه كانوا بدوًا ذوي قوةٍ، وإذا استُخدم هذا التعبير عن شعب من الحضر، فالمراد أنهم كانوا متمدنين جدا، وكانت عندهم طرق واسعة كبيرة، وأنهار.. وكان الملِك والمسؤولون يجوبون البلاد عبر هذه الطرق وعبر السفن.

ومن معاني الأَوتاد الرؤساء، وعليه فقوله تعالى ﴿وَفِرْعَونَ ذي الأَوتَادِ﴾ يعني أنه لم يكن ملِكًا فحسب، بل كان إمبراطورا يخضع له كبار الملوك والنواب الذين كانوا يحكمون شتى أقطار بلاده.

ومن معاني الأوتاد الجبال، فالمراد من قوله تعالى ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾ أنه كان يحكم مناطق جبلية أيضا.. أي كانت مصر في عصره مملكة مترامية الأطراف حيث كانت مناطق الخرطوم والحبشة خاضعة له أيضا. والآثار القديمة تؤيد أن بلاد مصر كانت واسعة جدا وكانت تضم بعض المناطق الجبلية.

## فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٣﴾

**التفسير**: لا شك أن كل سيئةٍ شنيعةٌ، ولكنها تصبح أشدَّ شناعة لسببين: لكثرتها، ولاحتوائها على جرائم كبيرة. إذا كثرت الجرائم في قوم ثم كانت كبيرة فاعلموا أن ساعة دمارهم قد اقتربت جدًّا.

والضمير في قوله تعالى ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ يمكن أن يعود إلى قوم فرعون، أو إلى عاد وثمود وقوم فرعون جميعا. والاحتمال الثاني هو الأوْلى.

الفساد يُطلَق على الجرائم الكبيرة. فقد أخبر الله بقوله ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أن هؤلاء قد ارتكبوا جرائم كبيرة وبكثرة. ومن المعلوم أن هذه الشعوب كانت مصابة بمرض الشرك على نطاق واسع جدًّا، فالمراد من قوله تعالى ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أنهم بلغوا منتهى الفساد بسبب طغيانهم إذ كانوا منغمسين في مساوئ بشعة كثيرة كالظلم وهضم حقوق الآخرين، بالإضافة إلى الشرك.

لقد ذكر الله هنا ثلاثة شعوب: عاد وثمود وقوم فرعون. كانت عاد وثمود من الشعوب العربية. أما قوم فرعون فكانوا من مصر، ولم يذكر الله تعالى هنا هذه الأمم الثلاث معًا بلا سبب، بل ذكرها لأن فيها نبأ عن فترتين: الفترة التي كان المسلمون الأوائل سيمرّون فيها في عشر ليال مظلمة من اضطهاد أهل مكة، والفترة الثانية هي زمن المسيح الموعود عليه السلام. ولما كان العرب وراء هذه الليالي العشر في المرة الأولى، فذكر اللهُ مثال عاد وثمود الذين كانوا من العرب، ونبَّههم أنه قد خلتْ في بلادكم أمتان ذات مملكتين كبيرتين، إحداهما: في جنوبكم والأخرى في شمالكم، فعليكم أن تفكروا في أحوال هؤلاء القوم، فإنهم لما عارضوا أنبياء الله تعالى وأكثروا الفسادَ، قضى الله عليهم ومحا أثرهم، ولم تنفعهم قوتهم شيئا. أما أنتم فلا تساوون إزاء هذه الشعوب القوية شيئا، فلماذا لا تأخذون العبرة من مصيرهم؟ ولماذا تصرّون على معارضة محمد ﷺ؟ فإنْ لم ترتدعوا عن سيرتكم فسوف نعاقبكم كما عاقبنا عادا وثمود. لا تظنوا أنكم ستنجحون بما تفعلون، ولا تغترّوا بقوتكم حيث تصبّون على المسلمين أنواع الظلم وتجعلون نهارهم ليلا، فقد ارتكب عاد وثمود أيضا فظائع شنيعة وأكثروا الفساد، ثم خابوا وخسروا.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: إن أكبر الكبائر قتلُ نبي من الأنبياء*. وأهل مكة أيضا سعوا لقتل النبي ﷺ كما قال الله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال:٣١).. ثم إنهم كانوا منغمسين في الشرك الذي هو ظلم عظيم لقول الله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٤). ثم إنهم لم يرتكبوا فظائع شنيعة فحسب، بل بلغوا المنتهى في ظلمهم؛ فآذوا كل من آمن بالنبي ﷺ، بل كانوا يبحثون عن المؤمنين ويذيقونهم ألوان العذاب بوحشية، حتى فرَّ كثير من المسلمين إلى الحبشة، ومع ذلك لم تهدأ ثورة الكافرين، فطاردوهم حتى الحبشة ليرجعوا بهم ويصبّوا عليهم الظلم مرة أخرى (سيرة ابن هشام: إرسالُ قريشٍ إلى الْحَبَشَة في طَلَبِ المهاجرين إليها)، ولذلك يقول الله تعالى في الآية قيد التفسير أيها المكيون، أمامكم مثال أحوال هذه الشعوب من الماضي، التي كانت من بلادكم، والتي بلغت في فسادها المنتهى، فلا تظنوا أن عصيانكم وظلمكم سيكون خيرا لكم. لقد غرَّ تلك الشعوبَ أيضا ظلمُهم، ولكنها دُمّرت في النهاية، كذلك سوف تصبحون هدفًا لغضب الله تعالى، وسينمحي أثركم من الدنيا كعاد وثمود.

وبعد ذلك يضرب الله تعالى مثال فرعون. وعندي أن في ذلك خبرًا عن زمن المسيح الموعود عليه السلام. إنني لا أستطيع أن أبين لكم كيف ولماذا يحصل هذا، ولكنني أستطيع أن أبين لكم أمرين يكشفان لكم أن مثال فرعون هنا ذو صلة بزمن المسيح الموعود عليه السلام. أول هذين الأمرين أن رسول الله ﷺ قال إن الليلة العاشرة من شهر محرم ذات أهمية كبيرة؛ لأن الله تعالى نجّى موسى من فرعون في ذلك اليوم، وأن حادثا مماثلا سيقع في أمتي حيث ينجي الله أمتي يومئذ من العذاب. فمع أن كلمات الآية تشير في الظاهر إلى فرعون والنجاةِ من ظلمه، إلا أنها نبأٌ عن حادث مماثل يقع في المستقبل.

---

* ورد في الحديث عَنِ ابْنِ مَسْعُود، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا، أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ..... (المعجم الكبير للطبراني ج ٩ ص ٦١) (المترجم)

والأمر الثاني هو قول للمسيح الموعود عليه السلام حيث قال:

"رأيتُ أني واقف على شاطئ نهر النيل، ومعي كثير من بني إسرائيل، وأظن أني موسى. ويبدو أننا هاربون دون توقف، وعندما نظرتُ ورائي بدا لي وكأن فرعون يلاحقنا مع جيش كبير وعتاد كثير من جياد وعربات وغيرها، وقد اقترب منا جدا، وأصحابي بنو إسرائيل خائفون جدا، حتى يئس كثير منهم وأخذوا يصرخون بصوت عالٍ: يا موسى إنا لمدركون. فقلت بصوت عال: كلا إن معي ربي سيهدين. ثم استيقظتُ وهذه الكلمات على لساني". (التذكرة، ص ٣٧٣)

وهناك إلهام للمسيح الموعود عليه السلام: "يأتي عليك زمنٌ كمثل زمن موسى". (التذكرة ص ٤٠٨)

إذن، هناك إشارة في حديث الرسول ﷺ إلى أن واقعة كواقعة موسى عليه السلام ستقع مع أمته ﷺ أيضا. وتاريخ الأمة شاهد على أن واقعة كهذه لم تقع بعد، بينما نجد المأمور الرباني الذي بُعث في هذا العصر قد أُخبر أنه يصير كموسى عليه السلام وأن فرعون سيطارده، حتى يقول أصحابه خائفين: يا موسى إنا لمدركون، فيقول بصوت عالٍ: كلا إن معي ربي سيهدين.. أي هذا محال، لأن معي ربي الذي سيدلّني على طريق الخلاص.

وهناك رؤيا لي قد نشرتُها في جريدة "الفضل"، رأيت فيها أني مقيم في بيت خطر ببالي أن موسى عليه السلام أيضا كان قد أوى إليه. (جريدة "الفضل"، مجلد ٣٢ عدد ١٤٢، ص ١، ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٤٤)

فإذا جمعنا رؤياي هذه مع هذين الإلهامين للمسيح الموعود عليه السلام تبينَ لنا بجلاء أن الآية قيد التفسير تشكّل نبوءة ستتحقق في الليلة الحادية عشرة عند الظهور الثاني لنبوءة ﴿لَيالٍ عَشْرٍ﴾، أي ستتحقق في القرن التاسع عشر على يد المسيح الموعود عليه السلام، حيث تتعرض جماعته لحادث كحادث نجاة موسى عليه السلام من مصر. ولما كان الحديث في هذه الآيات عن المسيح الموعود عليه السلام، فقد ضرب الله تعالى مثال واقعة فرعون لأعدائه عليه السلام كما ضرب مثال عاد وثمود لأعداء النبي ﷺ.

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٤﴾

**شرح الكلمات:**

**صبّ:** صبَّ الماءَ ونحوه صبًّا فصَبَّ هو: سكَبه فانسكبَ، لازم ومتعدٍّ. (الأقرب)

**سَوط:** السَوط ما يُضرَب به من جلد مضفور؛ النصيبُ؛ والشدة. والسوط من الغدير: فَضْلَتُه، تقول: وردنا على سوط الغدير: أي فَضْلته. (الأقرب)

**التفسير:** لو كان السوط هنا بمعناه المعروف، فستعني الآية أن الله تعالى سينـــزل عليهم عذابا بعد عذاب كما ينـــزل القطر بعد القطر عند صبّ الماء، فلن يشعروا بما يحصل بهم إلى أن يهلكوا ويبادوا.

ولو كان السوط بمعنى النصيب، فالمراد أنه سيقال لهؤلاء القوم: خذوا نصيبكم المقدر من عذاب الله.. أي لقد آذيتم أنبياءنا، فأخذوا نصيبهم من الإيذاء، والآن خذوا نصيبكم من العذاب.

ولو كان السوط بمعنى الغدير، فالمراد أنه سيُفرَغ عليهم غدير العذاب كله؛ ذلك لأن الغدير هي تلك الأرض المنخفضة التي يجتمع فيها الماء، فصبُّ سوط العذاب إشارةٌ إلى أن العذاب سيُدَّخَر لهم عند كل شرّ صادر منهم، ولن ينـــزل عليهم في كل مرة، إلى أن يصبح هذا العذاب كغدير ماء، فيُفرَغ عليهم كله.

إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٥﴾

**التفسير:** أي أن ربك يتربص بهؤلاء المجرمين، ولن يبطش بهم إلا مرة واحدة. يقال عندنا أيضًا: ضربة واحدة من الحدّاد تساوي ألف ضربة من الصائغ، كذلك من سنة الله تعالى أنه يمنح المجرم مهلة تلو الأخرى حتى يظن أنه لن يعاقَب على جرائمه، وفي الأخير يأتي يوم يبطش به الله فيه ويهلكه. يقول الله تعالى هذا ما

سنفعله بأعداء محمد ﷺ؛ فنمهلهم إحدى عشر سنة، إلى أن يأتي يوم نقضي فيه على كل مجد قيدار (أي قريش)، ونبدّل أذى المؤمنين فرحة.

أما نظرًا إلى الظهور الثاني لهذه النبوءة في القرن التاسع عشر فالمعنى: أن فرعون ذلك العصر سيظلم جماعة المسيح الموعود ظلما شديدا، حتى يقولوا يا موسى إنا لمدركون، فيقول إمام الجماعة في ذلك الوقت كما قال موسى لأصحابه: كلا، إن معي ربي سيهدين.. أي ما تقولونه خطأ، فلن يقدر العدو على إهلاككم، بل إن معي ربي وسوف يهديني طريق الخلاص.

لقد ذكرت عند تفسير الآية ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ أنه لما وصل الكافرون إلى مدخل غار ثور وأبدى أبو بكر رضي الله عنه قلقًا، هدّأه الرسول ﷺ قائلا: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠).. أي لا تقلق فإن الوتر معنا.. كذلك عندما ستتألم جماعتنا غاية الألم نتيجة اضطهاد فرعون.. يقول المسيح الموعود عليه السلام لجماعته روحانيا – أعني من خلال خليفته عندها، إذ ليسا شخصين بل هما شخص واحد– وهو واقف على شاطئ بحر الغم والهمّ، وربما على ضفة النيل فعلاً، أو أي نهر آخر وذلك لو حصلت هذه الأحداث في مصر أو أي بلد آخر.. يقول عليه السلام لهم بكل جلال: ﴿كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.. أي لا تحزنوا، لأن ربي معي، أي معنا الوتر الذي سوف يخرجنا من هذا الليل.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٦﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٧﴾

**شرح الكلمات:**

**ابتلاه:** ابتلى الأمرَ: عرَفه. أصلُه بَلِيَ يبلى وبلاه يبلوه بَلْوًا، وبَلِيَ الثوبُ يبلى: خلَق ورَثَّ فهو بالٍ. وبلاه يبلوه بَلْوًا: جرّبه واختبره. (الأقرب)

وورد في "المفردات": "بلوتُه: اختبرتُه، كأني أخلقْتُهُ من كثرة اختباري له".

النساء عندنا حين يشترين قطعة قماش يقُمْن بحَكِّه بأيديهن مرارا ليعرفن ما إذا كان القماش جيدا واللون قويا، فكأنهن يخلقنه، كذلك إذا فحصتَ الشيءَ مرة بعد أخرى كي يستقيم رأيك فيه، فكأنك أخلقته.

ثم ورد في المفردات:

"﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾.. أي تعرف حقيقة ما عملت. وسُمّي الغمُّ بلاءً من حيث إنه يُبْلي الجسمَ. وسُمي التكليف بلاءً من أوجهٍ: أحدها أن التكاليف كلها مشاقّ على الأبدان، والثاني أنها اختبارات". (المفردات)

الواقع أن حقيقة المرء تُعرف حين يُثْقَل بأعباء، فمثلا لا تعرف شجاعة امرئ لم يشترك في الحرب؟ وكيف تعرف ثبات إنسان لم يتحمل العبء مرة بعد أخرى؟ إن الجميع يدّعي أنه خبير وماهر، ولكن تُعرف مهارته حين تُلقى عليه مسؤولية كبيرة، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾. (محمد:٣٢)

ثم يقول صاحب المفردات: "والثالث أن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسارِّ ليشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليصبروا، فصارت المحنةُ والمنحةُ جميعا بلاءً. فالمحنة مقتضيةٌ للصبر، والمنحةُ مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسرُ من القيام بحقوق الشكر". (المفردات)

أي إذا حلّت بالمرء مصيبة تحمّلَها قائلا: قد حلَّ ما حلَّ فلأصبر الآن، ولكن الابتلاء المتعلق بالشكر خطير جدا، لأن الإنسان يقول في نفسه: فلأتمتعْ بالنعمة ما دامت في قبضتي، وينسى ربّه. إن الصبر يتعلق بالماضي الذي ينساه الإنسان، أما النعمة فتتعلق بالمستقبل، ونسيان المستقبل صعب جدا، ولذلك يقول صاحب المفردات إن الابتلاء الحقيقي يأتي في صورة النعمة. مثلا: يُعطي الله البعضَ الثراء،

والبعض الصحة، والبعض العزة، والبعض القوة، والبعض الحُكم.. وهي كلها نِعَم ربانية، ولكن الإنسان في كثير من الأحيان إذ نال المال والعزة نسي ربَّه، وإذا نال القوة تكبر، وإذا ازدهرت تجارته وصناعته وحرفته وزراعته أساء التصرف في أمواله أو أهلكها في رفع القضايا ضد الآخرين، أو هضم حقوق الفقراء، وإذا كان يتمتع بصحة جيدة أساء استعمال العيون والآذان وغيرها من الجوارح. لذا فالنجاح في اختبار نعمة الشكر صعب جدا، أما اختبار المحنة فسهل، مثلا: إذا مات صاحبك قلتَ: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن إذا نلت مالا فمن الصعب أن تمنع نفسك من الانغماس في الملذات والإسراف في الأكل والشرب. لذلك يقول صاحب المفردات: الابتلاء الحقيقي يأتي في صورة النعمة، وقليل من يفوز فيه.

ثم قال صاحب المفردات: وهناك قول لعمر ﷺ بهذا المعنى: "بُلينا بالضراء فصبرنا وبُلينا بالسراء فلم نصبر." (المفردات)

فترى مثلا أنه لم ينحرف أحد من الصحابة عن الإسلام زمن الشدائد والمحن، ولكن في زمن النعم ارتد العرب فور وفاة الرسول ﷺ، بسبب النـــزاع على المُلك والخلافة إلا أهل مكة والمدينة الذين تربوا في صحبة النبي ﷺ. لا شك أن هؤلاء المرتدين لم يكونوا من الصحابة ولكنهم كانوا قريـــبي عهد برسول الله ﷺ، وقد رأوا كثيرا من آيات نصر الله وتأييده، ومع ذلك ارتدوا جميعا. ورد في الحديث أنه بعد وفاة الرسول ﷺ لم يكن الناس يصلّون بالجماعة إلا في مكة أو المدينة، لأن وباء الارتداد قد تفشى في كل مكان (البداية والنهاية ج ٥ ص٣٠٠). لذلك يقول سيدنا عمر ﷺ: بُلينا بالضرّاء فصبرنا، وبُلينا بالسرّاء فلم نصبر.. أي قد صُبَّت علينا المصائب ولكنا بقينا صامدين لها ولم نفزع منها ولم نخف، ولكن حين أنعم الله علينا بنعمة تلو نعمة وفتح بعد فتح ونصر بعد نصر ومالا بعد مال لم نستطع أن نفوز في اختبار النِّعم هذا مئة بالمئة كما فزنا من قبل.

ثم يقول الراغب: "ولهذا قال أمير المؤمنين: مَن وُسّع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكر به، فهو مخدوع عن عقله. وقال الله تعالى ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾".

والمراد من أمير المؤمنين عادةً عليّ ﷺ. لا شك أن كل واحد من الخلفاء- رضوان الله عليهم أجمعين- كان أمير المؤمنين، ولكن بعض الكتاب المسلمين الذين كانوا يفضّلون عليًّا على الخلفاء الآخرين قد خصّوه بهذه الكلمة. ولعل صاحب المفردات يعني عليًّا ﷺ هنا. إذًا فسيدنا عليّ ﷺ أيضًا قد استنتج هذا المعنى من هذه الآية القرآنية نفسها، لأن الابتلاء في القرآن لا يعني العذابَ فقط مثل موت قريب أو خسارة مال، بل إن اقتناءك المال أيضًا ابتلاء، وهو أيضا خطير مثل ابتلاء الشدائد والمشاقّ. فيجب أن يخاف الإنسان عند تيسُّر الرخاء والعزة، كما يخاف زوال العزّ والمال. فمثلا لو مات جاموس امرئ اليوم، وسُرق ماله غدًا، وهلك كلبه بعد غد، ثم مات حصانه، ثم مات قريبه، لأصيبَ بالذعر والهلع، وكثير من الناس يقولون في هذه الحالة إن الله تعالى يعاقبهم على ذنوبهم. ولكن لو نال أحدهم اليوم مئة روبية، وغدا مئتي روبية وبعد غد ثلاث مئة، وفي اليوم الرابع أُنعم عليه بضياع وأراض، وفي اليوم الخامس أُنعم عليه بحصان، وفي السادس نال من الدولة لقبا مرموقا، فلن يخطر بباله أنه هالك بسبب هذه النعم، أو أنها قد تؤدي إلى دماره، مع أن الواقع أن هناك إمكانية سقوطه وهلاكه بنيل هذه النعم تمامًا كما توجد هذه الإمكانية عند هجوم المصائب عليه، فكما أن الشدائد المتتالية تُري المرء عذابَ الله قريبا، كذلك في بعض الأحيان يُعطى النعمَ على سبيل الاختبار لتُعرف مدى علاقته بالله تعالى.

الواقع أن كسب المال ليس ممنوعا شريطة ألا يضرّ بدين المرء، إنما الممنوع حبّ المال واستعماله الخاطئ. لقد كان صحابة الرسول ﷺ يملكون من الثروات ما يملكه كبار الأثرياء اليوم. ورد في التاريخ عن الصحابي عبد الرحمن بن عوف ﷺ أنه ترك عند وفاته ثروة قُدّرت في ذلك الوقت بحوالي ٢٥ مليون روبية (أسد الغابة: عبد الرحمن بن عوف)، وهي تساوي اليوم حوالي ٤٠٠ مليون روبية. ومع ذلك كان أكله ﷺ وشربه ولبسه كالمسلمين العاديين، إذ كان حريصًا على إنفاق ماله في سبيل الله تعالى بلا تردد. أفَعَل أولاده بعده مثله أم لا؟ الله أعلم.

باختصار إن حصول المرء على نعمة من الله تعالى ابتلاء أيضا.

ثم يضيف صاحب المفردات: "وإذا قيل ابتلى فلانٌ كذا وأبلاه، فذلك يتضمن أمرين، أحدهما تعرُّفُ حاله والوقوفُ على ما يُجهَل من أمره. والثاني ظهور جودته ورداءته. وربما قُصد به الأمران، وربما يُقصد به أحدهما. فإذا قيل في الله تعالى: بلى كذا أو أبلاه، فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته دون التعرف لحاله والوقوف على ما يُجهَل من أمره، إذ كان الله علاّم الغيوب."

أي الابتلاء قسمان: معرفة حقيقة الشيء، والثاني إظهار حقيقته. ونظرًا إلى المعنى الثاني فإن قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ يعني أن الله تعالى عندما أراد أن يكشف جودةَ أو رداءة أخلاقِ المرء وأفكاره وطاقاته فيُنعم عليه، فيقول الإنسان إن ربي أكرمني.

من سنة الله تعالى أنه إذا أراد إظهار حقيقة إيمان العبد وإخلاصه ليعرفها العبد بنفسه أو ليعرْفها الآخرون، فيُكرِمه وينعم عليه باستمرار على سبيل الاختبار، فينال مالا، ويربح في التجارة، وتنتج دوابُّه بكثرة، وتدرّ عليه أرضُه، وتخلع الدولة عليه لقبًا أو تمنحه منصبا، فيقول إن ربي أكرمني وأعزّني؛ ولكن قوله هذا فارغ، إذ يقول بلسانه أنعم الله عليّ كثيرا، بينما يخلو كلامه من أي حقيقة، إذ لو كان صادقًا في قوله لظهر صدق قوله هذا في كل موطن ومكان، فإن الإنسان طويل القامة – مثلا– إذا ساح في إيران بدا طويلا، وإذا مشى في بلد آخر بدا كذلك أيضا، ولكنه لو بدا طويلا في مكان وقصيرا في آخر، فلا بد من أحد أمرين؛ فإما أنهما شخصان ليس شخصا واحدا، أو أنه يخادع فيلبس حذاء عالي الكعب في بلد، وحذاء عاديا في بلد آخر. الحق أن حالة المرء الثابتة هي حقيقته الأصلية، وإلا فهو يتصنع ويتكلف. ومن الأدلة على تكلُّف هذا الإنسان في شُكره قوله تعالى ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾.. أي أن الله تعالى حين يلقي هذا الإنسان في اختبار آخر ويقدر عليه رزقه — يقال: قدر على عياله: ضيَّق– أو يصيبه بخسارة لكشْف حقيقة باطنه يقول إن ربي أهانني وأخزاني، بدلاً من أن يتحلى

عندها بالتقوى فينسب الخير إلى الله تعالى والشر إلى نفسه. وهذا دليل أكيد على أن ما قاله وقت النعمة كان مجرد ثرثرة لسان. ولذلك استخدم القرآن عندها كلمة ﴿يقول﴾.

اعلموا أن التفوه بكلمة كفر جريمةٌ، ولكن خروج كلمة الخير من القلب ليست جريمة على الإطلاق. ومع ذلك لو تفوه المرء بكلمة خير نفاقًا ورياءً، أصبحت كلمة الخير هذه جريمة. أما خروج كلمة كفر من قلبه فهي جريمة بالطبع.

**التفسير**: أي أن الله تعالى لو ابتلى العبدَ بإنـــزال نِعَمه عليه كنـــزول المطر، لقال لقد أعزّني ربي وأكرمني، وإذا ضيّق عليه حياته وضيق عليه سبل معيشته لحكمة قال قد أذلني ربي وأهانني.. أي أنه ينسب الخير والشر كليهما إلى الله تعالى، ويقولً: الله هو الذي أحسن إليّ وهو الذي أساء إليّ. فاعتبر الله تعالى تصرُّفهم هذا خطأ كبيرا، وقال لا تقولوا إن العز يأتي من الله والذلّ كذلك من الله، أو أنه تعالى يأتي بالنتائج الحسنة للأعمال، وهو نفسه يأتي بالنتائج السيئة أيضًا.

وهنا نجد إشكالاً، لأن المنافقين حين قالوا عكس ما زجرهم الله تعالى بسببه هنا فقد نهرهم مرة أخرى حيث قال: ﴿وَإِنْ تُصبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذه مِنْ عِنْد اللهِ وَإِنْ تُصبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذه مِنْ عِنْدكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَديثًا﴾(النساء:٧٩).

فكيف زجرهم الله تعالى على قولهم إن العزّ والذل كليهما من الله تعالى، مع أنه تعالى أكد ذلك أيضًا في قوله: ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْه رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾.. فلماذا يعلّم الله تعالى شيئًا هنا، ثم يزجر المنافقين على قولهم الشيء نفسه في موضع آخر ويقول لهم: لقد قلتم شيئا خطيرا. فهنا قال: لا تنسبوا الخير والشر إلى الله تعالى، وفي مكان آخر نسب الخير والشر كليهما إلى نفسه! فهناك تناقض ظاهري بين الآيتين.

وليس هذا فقط، بل قال الله تعالى في موضع آخر ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَة فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(النساء:٨٠).. مع أنه يظهر أن هذا هو

نفس ما قاله المنافقون في سورة النساء، بأن الخير من الله والشرّ من محمد، ومع ذلك زجرهم.

ثم يقول الله تعالى في مكان آخر ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(فُصّلت:٤٧).. أي أن الخير يصدر من الإنسان، والشرّ أيضا يصدر منه، فيعاقَب عليه، وربك ليس ظالما لعباده، وإنما العباد هم الذين يفعلون ما يفعلون فيُجزَون عليه. فنرى هنا أن الله تعالى نسب الخير والشر كليهما إلى العبد.

كذلك ورد في القرآن عن قارون الذي كان معاصرا لموسى عليه السلام أنه قال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٩).. أي فعلتُ ما فعلتُ بناء على العلم فنلتُ جزاءه.

إذًا كل هذه الآيات تبدو متناقضة في الظاهر، فعندما قال العبد شيئا قال الله: لا. وعندما قال العبد ما علّمه الله، قال الله أيضًا: لا. فهذه أربع أقوال متناقضة في ظاهرها. والسؤال: ما هو الحق إذن؟

هناك أربع احتمالات لا خامس لها:

١-إما أن الخير والشر كليهما من الله تعالى

٢- أو أن الخير والشر كليهما من الإنسان

٣- أو أن الخير من الله والشر من الإنسان

٤-أو أن الشر من الله والخير من الإنسان

والغريب أن الله تعالى يرفض كل هذه الاحتمالات ظاهرا.

والسبيل إلى حل هذا التناقض الظاهري هو أن نعلم أن كل هذه الأقوال جاءت في سياق معيّن، والتناقض الذي نراه يعود إلى عدم فهم السياق والمنظور فقط. فحيثما ذكر الله تعالى أمرًا ثم أبطلَه فكان من منظور معين، وحيثما صدّق الله الأمر نفسه، فكان من منظور آخر. وأي شك في أن اختلاف زوايا النظر يؤدي إلى تغير كبير؟ فمثلا إذا قال أحدنا لن أفعل إلا ما يأمر به النبي أو خليفة الوقت أو أمير جماعتنا أو رئيس جماعتنا، فهذا قول معقول جدا، وكل من يسمعه يعتبره صحيحا. ولكن إذا قُدّم له الطعام وهو جالس في بيته فقال: لن أتناوله ما لم يأت النبي أو الخليفة أو الأمير أو الرئيس، ويسمح لي بأكله، فسوف نعتبر تصرفه هذا خطأً رغم

أن كلامه جيد. فترى أن الشيء الواحد كان صحيحًا في سياق، وصار خطأ في سياق آخر. أو لو أن شخصًا من جماعتنا دعا الإخوة للتبرع لضرورة طارئة للجماعة لقيل له: ما لم يسمح لنا أميرنا أو المركز بشكل رسمي بدفع التبرعات لهذه الحاجة فلن نتبرع بشيء، فقولهم صحيح ١٠٠%، لأننا لو سمحنا لكل واحد بجمع مثل هذه التبرعات فلن يستطيع الإخوة دفع التبرعات الرسمية المطالَب بها من قِبَل المركز، أما لو ذهب سكرتير المال أو غيره من مسؤولي الجماعة لجمع التبرعات، فقال له أحد: ما لم تأتني برسالة من الخليفة باسمي أو ما لم يكتب لي بيت المال في المركز بدفع التبرعات فلن أعطيك شيئا، فكل إنسان سيعتبر قوله هذا خطأً، مع أن قوله مماثل للقول السابق في الحالة السابقة. ذلك أن القول الأول قيل في سياق وهذا في سياق آخر، وبسبب تغير السياق نعتبر هذا القول في الحالة الأولى صحيحا ونعتبره خطأ في الحالة الثانية. إذًا، فاختلاف المنظور والسياق يؤدي إلى فرق كبير.

وأضرب مثالا آخر: ضربُ الابن والدَه جريمة شنيعة، ولكن لو كان الوالد جالسا في مكان، وابنه جالس وراءه، ورأى أن حيّة قد صعدت على ظهر أبيه واقتربت من عنقه وهي على وشك أن تلدغه، ففكّر الابن أنه لو حاول إزالتها بيده عن ظهر أبيه فقد تتنبه وتلدغ أباه، فليس أمامه إلا أن يدفعها بصدمة مفاجئة، فينظر يمنة ويسرة، فلا يجد إلا حذاء، فيضرب الحية بالحذاء، ولن يفكر في أن ضرب الوالد غير جائز. ولن يلومه أحد قائلا: أنت ابنٌ خبيث، فكيف تضرب أباك بالحذاء؟ بل سيثني عليه وعلى ذكائه الجميع؛ إذ أنقذ أباه من الموت المحقّق. إذن، فعملٌ واحد يكون مذمومًا في سياق، ومحمودا في سياق آخر.

أو هناك حريق مثلاً، والناس يستنجدون لإطفائه، وأنت بدلاً من أن تذهب لنجدتهم تبدأ في الصلاة أو تأخذ المسبحة وتذكر الله تعالى، فلا يقال أبدًا إنك رجل صالح محب للصلاة ولذكر الله، بل سيذمّك الجميع ويلومونك، مع أن الصلاة عمل حسن جدا.

باختصار، إن اختلاف زاوية النظر واختلاف السياق والمحل يغيّر قيمة أقوال الإنسان وأفعاله.

وفيما يتعلق بالاحتمال الرابع "أن الشر من الله والخير من الإنسان"، فإن القرآن يرفضه رفضا باتًّا. إنه قول مذموم ومكروه من كل النواحي، ولا يمكن أن يكون له أي تفسير مقبول أبدًا.

أما الاحتمال الثالث "أن الخير من الله والشر من الإنسان"، فلا يرفضه القرآن الكريم في الحقيقة بل يؤيده كما قال الله تعالى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(النساء:٨٠).. ولم يرفضه الله تعالى في أي مكان آخر. وإذا وجدنا آية ترفض هذا المفهوم ظاهرا، فهي لا ترفضه في الحقيقة، وإنما تؤيده، كقول الله المذكور من قبل ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(النساء:٧٩).. إذ لا تعني هذه الآية ما يعنيه قول الله تعالى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء:٨٠).. وإنما لها مفهوم آخر تماما، إذ تفنّد خبث المنافقين الذين إذا ظهرت نتيجة حسنة لجهود النبي ﷺ، قالوا: هذه مجرد صدفة، وليس فيها ما يدل على نصر الله أو حنكة النبي ﷺ، وإن عبّروا عن ذلك بقولهم ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾. وهذا في الواقع تعبير اخترعه ضعفاء الإيمان لعزْو الأمور إلى الصدف؛ إذ لا يعنون به أنهم موقنون بذات الله تعالى وأن هذا الأمر كان نتيجة للتأييد الرباني، بل يتكلمون بهذا الكلام من باب العادة والتقليد الفارغ من أي دلالة على إيمانهم. وفي بلادنا أيضًا تعبيرات مماثلة لبيان أن الأمر كان صدفة، فمثلا لو نالوا خيرا قالوا: هذا من فضل الله، مع أن قلوبهم تكون خالية تماما من خشية الله أو الإيمان أنه تعالى هو الذي قد كتب لهم هذا النجاح فضلاً منه. إذن، فمثل هذه الكلمات لا تدل على إيمان أصحابها، بل هي تعابير تجري على ألسنتهم في مناسبات شتى. الفرق أن المؤمن حين يتفوه بها فإنه يعني أن الله تعالى قد تفضّل عليه فعلاً، أما الكافر أو المنافق فيتفوه بها وهو يقصد أن الأمر كان مجرد صدفة فحسب. وهذا ما يبينه الله تعالى هنا.. أي أن المنافقين إذا أصابهم خير قالوا على سبيل التقليد لا على سبيل الإيمان: هذه من عند الله.. أي ما هذا إلا صدفة، والدليل على عدم إيمانهم أنهم ينسبون

الشر إلى النبي ﷺ. لو نسبوا الشرّ إلى أنفسهم لكان الأمر غير ذلك، ولكنهم ينسبونه إلى النبي ﷺ، مما يدل بوضوح أن لا إيمان عندهم.

ولو قيل إنهم ينسبون كل فعل إلى الله نظرًا إلى نتائج الأعمال، فالجواب أنه ما دام الله تعالى هو الذي يأتي بالنتائج كلها؛ فلماذا يقولون إن النتائج الحسنة من الله والسيئة من محمد؟ فلو كان كلامهم هذا باعتبار النتائج، فأيضا قد أخطأوا فيما قالوا، لأن القرآن الكريم يعلن أن الكل من عند الله، النتائج الحسنة من الله والنتائج السيئة أيضًا من الله، فلو كانوا صادقين لنسبوا النتائج الحسنة والسيئة كلها إلى الله تعالى، ولكنهم ينسبون الحسنة منها إلى الله والسيئة منها إلى الرسول ﷺ.

ولو أنهم أرادوا أن ينسبوا النتائج كلها إلى أعمال العباد.. أي أن العبد إذا قام بعمل حسن جاءت النتيجة حسنة، وإذا قام بعمل سيئ جاءت النتيجة سيئة.. فكان عليهم أن ينسبوا النتائج كلها الحسنة منها والسيئة إلى الرسول ﷺ. إذا كان كثير من المسلمين قد استشهدوا في غزوة أُحد نتيجة خطأ، فإن محمدا ﷺ قد انتصر أيضا مع حفنة من أصحابه على جيش كبير للكافرين. فإذا كان قولهم هذا نظرًا إلى فعل العباد فكان عليهم أن ينسبوا العمل الحسن والعمل السيئ كليهما إلى محمد ﷺ، وإذا قالوا هذا نظرًا إلى النتائج فكان عليهم أن يقولوا إن الحسنة والسيئة كلتيهما من الله تعالى. ولكنهم قالوا الحسنة من الله والسيئة من محمد، مما لا يستقيم من أي منظور.

الواقع أن من المحال أن ينسب المنافقون الخير والشر كليهما إلى الله تعالى أو إلى رسوله ﷺ، لأن هدفهم النيل من الرسول ﷺ، فلو قالوا إن النتائج الطيبة والسيئة كلتيهما تظهران بسبب محمد ﷺ، لما استطاعوا إبعاد الناس عنه ﷺ، لأن النتائج الطيبة كانت أكثر بكثير من النتائج السيئة؛ إذ بلغت نسبتها ٩٨%. فعزْوُ النتائج كلها إلى الرسول ﷺ ما كان ليحقِّق هدفَهم، بل لرفع مكانة الرسول ﷺ في أعين القوم وجعلهم يثنون عليه قائلين إنه زعيم موهوب؛ إذ انتصر على الأعداء وأسرهم وجلب الغنائم في معظم الحروب. لقد مُنِيَ المسلمون بخسائر أكثر من الكفار في

حربيْن فقط، أما في حوالي أربعين أو خمسين غزوة فكانت نسبة قتلى المسلمين إلى قتلى العدو هي واحد من عشرة.

أما لو نسب المنافقون النتائج كلها إلى الله تعالى قائلين إن الخير منه والشر منه، لفشلت أيضًا خطّة إغواء الناس وتضليلهم. كان غرضهم إبعاد الناس عن الإيمان، فما كانوا ينسبون الخير والشر لا من الناحية المادية ولا الروحانية بطريق سليم، بل إذا أصابهم الخير اعتبروه صدفة، وإذا أصابهم الشر نسبوه إلى الرسول ﷺ قائلين: لقد سبق أن تضررنا في موطن كذا وكذا، ومع ذلك لم يغير محمد موقفه، فدفع القوم اليوم إلى الضرر مرة أخرى.

فاعتراضهم ليس مبنيا على أي منطق، بل أساسه الشر والفتنة والفساد، لذلك رفض الله قولهم هذا، وإلا فالواقع أن النعمة من الله تعالى، والشرّ نتيجة لخطأ العبد، ولكن العبد المقصود هنا ليس محمدا ﷺ، بل عامة المسلمين. فحيثما أصيب المسلمون بنكسة ما كان مردّه خطأ من الرسول ﷺ، بل سببه خطأُ اجتهاد المسلمين حينًا كما في غزوة أحد، أو جبنُ ضعفاء المسلمين والكافرين الذين انضموا إليهم حينًا آخر كما حصل في غزوة حنين. أما المنافقون فليس قولهم سليمًا لا من الناحية الروحانية ولا المادية. وإنما قالوا ما قالوا بنيّة الفساد والنيل من الرسول ﷺ، ولذلك رفض الله تعالى قولَهم.

ولو قيل إنهم نسبوا الخير إلى الله والشر إلى العبد تعظيمًا لله تعالى، فالجواب لو كان في قلوبهم تعظيم لله تعالى لنسبوا الشر إلى أنفسهم أو إلى الصدفة قائلين: لقد تضررنا لأننا أخطأنا، ولم ينسبوا الشر إلى الرسول ﷺ. إنما التعظيم أن ينسب الإنسان الخطأَ إلى نفسه، والخيرَ إلى سيده، ولكنهم ينسبون الخير إلى الله تعالى والشر إلى الرسول ﷺ، مما يعني أنهم لم يقولوا هذا تعظيما لله تعالى، بل بقصد الفتنة والفساد.

أما نسبة الخير إلى الله والشر إلى العبد فأساسها أن الله تعالى قد خلق كل شيء لخير الإنسان، ولكنه يصبح شرًّا له جرّاءَ فعله أو فعلِ عدوه. فمثلا: قد خلق الله الزرنيخ ليتناوله الإنسان ليشفى من الحمّى، أو من الإسهال الدموي لأن تناوُل

جرعة من الزرنيخ بحسب العلاج بالمِثل (الهوميوباثي) يشفيه منه ويمنع النـــزيف، أو أن المصاب بفقر الدم والضعف أو بضعف الأعصاب خاصة لو تناول مقدارا معينا من الزرنيخ شفي من مرضه. فهناك عشرات الفوائد للزرنيخ، ولكن بعض الناس يتناول الزرنيخ عمدا لينتحر، أو أحيانا يتناول أشياء مكوَّنة من الزرنيخ بدون حاجة وبدون مشورة طبيب، أو يُطعِمه العدوُّ إياه خداعًا فيهلك. فمع أن الله تعالى قد خلق الزرنيخ لخير الإنسان، إلا أن هذا الخير يصبح شرًّا له نتيجة سوء استعماله أو لخطأ طبيب أو كيد عدو.

أو خذوا مثلاً الحديد، فقد خلقه الله تعالى لفائدة الإنسان ليصنع منه قطّاعات وسكاكين ومعاول ومناشير وغيرها من الأدوات التي تساعده في ذبح الحيوان وحراثة الأرض وحفرها وكسرِ الصخور وقطع الخشب وما إلى ذلك، ولكنه لو أخذ قضيبا من حديد وضرب به رأسه فمات، فهذا ذنبه هو لا فعلُ الله الذي خلق الحديد لنفع الإنسان وليس للإضرار به أو قتله.

فحيث إن الله تعالى قد خلق كل شيء لمنفعة الإنسان، وإذا تضرر به فإنما يتضرر بنفسه، لذا يُنسب كل خير إلى الله وكل شر إلى الإنسان.

الواقع أنه فيما يتعلق بالنتائج فهي من الله تعالى، لأنه هو الذي يرتب نتائج الأعمال سيئة أو حسنة، ولكنه تعالى لا يُتّهم بظهور نتيجة سيئة لعمل لأنه تعالى لم يفعله وإنما فعله الإنسان. فمثلا لو قفز شخص من منارة ومات، فهو مَن ألقى بنفسه منها، ولم يسقطه الله، مع أن الله تعالى هو الذي خلق الإنسان من لحم ودم بحيث لو سقط من مكان عالٍ مات، وهو ﷻ الذي جعل له رئة تتضرر نتيجة سقوطه. ففيما يتعلق بالنتيجة فهي تُنسب إلى الله تعالى حتمًا، وسيقال إن الإنسان مخلوق من عند الله تعالى بلحم ودم بحيث لو قفز من مكان عالٍ ترضّضَ جسده ومات، ومع ذلك لا يقال إن الله أسقطه من المنارة، أو جعله من لحم ودم ليقفز من المنارة، كلا، بل قد خُلق لحمه ودمه لهدف آخر.

فثبت أنه فيما يتعلق بالنتائج فإنها بخيرها وشرها ستُنسب إلى الله تعالى، ولكن فيما يتعلق بالشر الناتج فيُتهم الإنسان بتسبُّبه، وإليه يُنسَب الفعل خيرا أو شرا.

فنقول: الخير يأتي من الله والشر كذلك، ولكن إذا قيل من يرتكب الفعل الحسن أو السيئ، فنقول: العبد، لأنه هو الذي يسرق وهو الذي يصلي. فيما يتعلق بكفاءات الإنسان فلو سئلنا مَن خلقها فيه، قلنا: الله تعالى، وإذا سئلنا من أظهرها بالفعل؟ قلنا: العبد. ذلك أن قوى الإنسان وكفاءاته كلها خير، فنقول إنها من عند الله تعالى، وفيما يتعلق باستعمالها وظهورها فخيرها يُنسب إلى الله تعالى لكونه خالقًا لها، وشرُّها يُنسب إلى العبد؛ لأن العباد هم الذين يرتكبون أفعالا شريرة.

إذن، ينسب الخير والشر كلاهما إلى الله تعالى من حيث النتائج، وينسب الخير والشر كلاهما إلى العبد من حيث العمل. ومن حيث تزوُّد الإنسان بشتى القوى، فيُنسب خيرُها إلى الله تعالى، ولكن لا يُنسب شرها إلى الله تعالى، لأنه لم يخلق أي شيء لاستعمال سيئ. ومن حيث ظهور هذه القوى في الإنسان بالفعل، فخيرها ينسب إلى الله تعالى وشرها إلى العبد. لأن الله تعالى لم يخلق هذه القوى لأي شر.

باختصار، فكلا الأمرين يفعلهما الله، ويفعلهما الإنسان أيضًا، ومع ذلك يُنسب الشر إلى الإنسان والخير إلى الله تعالى. وقد رُفض قول الإنسان من عند الله تعالى في الآية قيد التفسير لأنه نسب الشر إلى الله تعالى، حيث أخبر الله تعالى ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾.. أي أن الله تعالى حين يمطر على عبده مطر نعمه لكشف حقيقته عليه، ينسى الهدف الحقيقي وراء ذلك ويقول: لقد أكرمني الله.. أي أن الله قد عاملني هكذا لأني أهلٌ لذلك، ولا يفكّر أن الله قد أعطاه هذه النعم لكشف خيره أو شره على الدنيا، أو أعطاه هذه الثروة ليُري الناس قوة إيمانه أو ضعفه، وأن ثروته أصابته بالكبرياء أم لا، وأنه أدى حقوق العباد بكل أمانة أم لا. فبدلاً من أن يدرك العبد هذا الهدف وراء إنعام الله عليه يستنتج منه نتيجة خاطئة، فيظن أن الله تعالى قد أحبه إذ ينعم عليه هذا الإنعام الكثير.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾.. أي إذا اختبره الله تعالى بضيق الرزق فلا يدرك أن الله تعالى يريد بهذا الابتلاء أن يكشف معدنه له أو للدنيا: أيصبر على الشدائد، ويكون جنديًا شجاعا في سبيل

تلبية حاجات الأمة أم لا. إنه لا يفهم أيًا من هذه الحِكم، فيصرخ عند الضيق أن الله قد أهانني. ويعني أنه يتخذ في كلتا الحالتين موقفا خاطئا، ويكون كلامه في المرتين خاطئا، وإن كان كلامه صحيحًا من حيث المبدأ أن الله تعالى يختبر العبد بالإنعام والإكراه حينًا وبإلقائه في المحن وضيق الرزق حينًا آخر.

فالمؤمن يظل في الحالتين ثابتًا قائما، أما الكافر فيقول عند الإنعام والإكرام ربي أكرمني، مع أن الله تعالى يريد اختباره بهذا الإكرام، وعندما يضيق عليه رزقه يقول ربي أهانني، مع أن الله تعالى يريد كشف باطنه بهذا الاختبار. وكأن كلا المقامين مقام ابتلاء لا مقام جزاء. عندما يُمطر اللهُ على العبد نِعمه فهو في ابتلاء، وعندما يضيق عليه رزقه فهو في ابتلاء أيضا، بمعنى أن الله تعالى لا يُنـــزل عليه نعمه جزاءً على عمل عظيم، ولا يضيق عليه رزقه عقوبةً على جريمة، بل هما حالتان من الاختبار كي يكشف الله حقيقته عليه وعلى الآخرين.

يجب ألا يغيبنَّ عن البال أن نِعَم الله وبلاياه نوعان؛ ما يكون ابتلاء، وما يكون جزاء. بمعنى أنه ينـــزل عليك النِعم ابتلاء حينًا، وجزاءً حينًا آخر، وكذلك ينـــزل عليك المصائب ابتلاء حينًا، وعقوبة حينًا آخر. والحديث هنا عن الابتلاء لا عن الجزاء، ولذلك يدينُ اللهُ الإنسانَ ويقول: لقد أنعمنا عليه اختبارًا، فقال: لقد أكرمني الله، وكأنما يقول: كان حقًّا على الله أن ينعم عليه، وكان واجبا على الله أن يكرمه. إنه لم يفكر أنه لم يعمل أي خير، وإنما نزلت عليه هذه النعم لاختباره. وعلى النقيض إذا أصابته مصائب على سبيل الاختبار قال: ربي أهانني، وقد أذلني غاضا النظر عن مكانتي. لو أن الإنسان قال في هذه الحالة قد نزل علي هذا العقاب بسبب جرائمي، أو قد عذبني ربي نتيجة ذنوبي، لما عُدَّ مجرما ومدانا – وإن كان قوله هذا أيضًا خطأً، إذ هو في مقام الابتلاء لا في مقام الجزاء– ولكنه يقول ربي أهانن.. أي كنت أستحقّ الإعزاز ولكن ربي أهانني وأخزاني.

الواقع أن للابتلاء صوره وللجزاء صوره. فمثلا يُعزّ الله تعالى كل نبي ويكتب له النجاح في أهدافه، فهناك عديد من الأنبياء الذين أُعطوا المُلك المادي مع الملك الروحاني، مثل موسى وداود وسليمان عليهم السلام (النمل: ١٧–٢٠، ص: ١٨–

٢١ و ٣١-٣٦، التثنية: ٢/٣١-٣٣، الملوك الأول ٢/١١ و ٢/١٢)، ولكنهم لم يُعطَوا المُلك المادي ابتلاءً، بل إنعامًا وجزاءً، لتقويتهم؛ فمثلا لو لم يؤت اللهُ الرسول ﷺ مُلكًا ماديًا، فكيف كان سينفّذ شريعة القرآن عمليا؟ فثبت أن المُلك الذي وهب للنبي ﷺ وغيره من الأنبياء كان أمرًا ضمنيا وبمنـــزلة وسيلة لتكميل مهمته ولم يكن ابتلاء. إنما يأتي الابتلاء دائما لكشف أخلاق المرء، أما الرسول ﷺ فكانت أخلاقه قد تجلّتْ من قبل بشكل كامل، وقد فاز برضى الله تعالى في السراء، وسار على سبل رضاه في الضراء أيضا. لقد جاءته الثروة فأنفقها لمنفعة الناس بلا هوادة، ولم ينتفع منها. وقد صُبّت عليه أنواع المصائب والأذى، فلزم الصبر دائما. ذات مرة مرّ النبي ﷺ بالمقابر، فوجد امرأة تبكي على قبر، فقال لها: اصبري يا امرأة، فقالت: لو مات ولدك لرأيت كيف تصبر! إنك تنصحني إذ لم يمت لك ولد. فقال ﷺ: لقد مات لي سبعة، وصبرت في كل مرة. ثم ذهب النبي ﷺ، فقيل لها: ويلك ألم تعلمي من هو؟ قالت: كلا. قالوا: هو رسول الله ﷺ. فأسرعت تجري وراءه ﷺ حتى أتت بيته وقالت: يا رسول الله، إني أصبر. فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأُولى أما بعد ذلك فلا بد للمرء إلا أن يصبر شاء أم أبى. (البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور).

إذن، قد مرّ النبي ﷺ بمواقف يجزع فيها الإنسان ويفزع، ولكنه صبر فيها راضيا بمشيئة الله. كان النبي ﷺ عند ابنه إبراهيم عليه السلام حينما جاد بأنفاسه الأخيرة، فسالت الدموع من عينيه ﷺ من شدة الكرب، فقيل له: يا رسول الله، أتبكي؟ فقال: نعم، العين تدمع ولكن لا اعتراض عندنا على قضاء الله، فالخير فيما فعل (المستدرك للحاكم: كتاب الجنائز). فالابتلاء غير الجزاء، لأن من النعم ما يكون جزاء على وصول المرء المقامات الروحانية العليا. لقد قال السيد عبد القادر الجيلاني رحمه الله: إني لا آكل طعامًا حتى يقول الله لي: يا عبد القادر، أنشدك باسمي أن تأكله. ولا ألبس لباسا حتى يقول الله لي: يقول الله لي: يا عبد القادر، أنشدك باسمي أن تلبسه. فهذا المقام ليس مقام ابتلاء، بل هو مقام إنعام يناله المرء بسبب بلوغه المقام العالي. والله تعالى يمرّر هؤلاء الأخيار بالسرّاء والضرّاء ويكشف

أخلاقهم وباطنهم للعالم جيدا، فلا يكونوا بعدها بحاجة إلى أي ابتلاء، أما عامة الناس فتصدأ قلوبهم بالذنوب بحيث لا يتأثرون إذا مسّتهم السراء الآتية من عند الله تعالى، ولا يتغيرون إذا مستهم الضراء من عنده تعالى. إنهم يعيشون عميانا، ويفارقون الدنيا عميانا، وعن مثل هؤلاء العميان روحانيًا تحدّثَ الله في هذه الآية، وأخبر أنه أحيانا يصيبهم بالسراء على سبيل الابتلاء، ولكنهم يفرحون قائلين: لقد أكرمنا الله، مع أن أعمالهم ليست مما يستحقون به الإنعام والإكرام من الله تعالى، إذ تؤدي بهم ثروتهم وعزتهم إلى الجحيم في كثير من الأحيان، وأحيانا يُضيِّق الله عليهم رزقهم فيقولون لقد أهاننا الله. وكأنهم في الحالتين يغمضون أعينهم عن حِكم الله، فيموتون روحانيا.

وقد رسم الله تعالى واقعهم هذا في آية أخرى فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(يس: ٤٨). فهذه الآية شرح للآية قيد التفسير، حيث بين الله تعالى فيها أن الكفار يرون أن الله أعطاهم هذه النعم لأنهم يستحقونها، ولم يُعطِها غيرَهم لأنهم لا يستحقّونها، وحيث إن الله قد أكد بفعله أنهم لا يستحقونها، فمن واجبنا أن لا نعطيهم منها شيئا. والظاهر أن مَن عنده هذا التفكير لن يشكر الله تعالى على نعمه، وإذا أصابته مصيبة فلا بد أن يشتكي بأنه تعالى لم يكرمه إكراما يليق به، ولم يعامله بحسب مكانته.

كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٩﴾

**شرح الكلمات:**

**تَحاضُّون:** حاضَّه عليه: حثَّ كلٌّ واحد منهما صاحبَه. تَحاضَّ القومُ: تَحاثُّوا. (الأقرب)

**التفسير**: أي ليس الأمر كما تحسبون. تظنون أنكم أُعطيتم هذه الأموال لأنكم كنتم أحقّ بها دون الآخرين، أو ابتُليتم بهذا البلاء لأن الله تعالى لم ينصفكم، والحقيقة أنكم إنما أُوتيتموها لتنفقوها على الفقراء فيرسى الأساس لمجتمع صالح في الدنيا، فاستكبرتم، فلم تهملوا الفقراء واليتامى ولم تكرموهم فحسب، بل أسأتم معاملتهم وقلتم لهم لستم أهلاً عند الله لنيل هذه النعم، ولذلك أخزاكم الله وأهانكم. هلا أدركتم أيها المغرورون أن الله تعالى قد أعطاكم هذه الأموال لينظر أتتفقدون اليتامى، ويحث بعضكم بعضا على رعايتهم قائلا: لقد أعطانا الله المال فتعالوا نعتنِ بالفقراء ونطعم الجياع ونَكْسُ العراة في البرد وننفقْ على المحتاجين لإزالة معاناتهم، ولكنكم قلتم: لنا حظوة عند ربنا فلذلك أكرمنا دون غيرنا، وظننتم أنكم أحبّاء الله المقرَّبون فلذلك أنعم عليكم بهذه النعم وحرم الآخرين. لقد نسيتم أنكم أُعطيتموها لتكفلوا اليتامى وتساعدوا المساكين، وظننتم أنها حق لكم، فأهملتم الفقراء واليتامى ولم تسدّوا حاجاتهم، فكم من يتيم صغير مات جوعا أمام أعينكم! وكم من مسكين ظلّ يتكفف الناس مطرودا من باب إلى آخر، ولكنكم لم تعتنوا بهم، نشوانين في كبريائكم.

وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿٢٠﴾

**شرح الكلمات:**

**التراث**: ما يُخلفه الرجل لِوَرَثَته. (الأقرب)

**لَمًّا**: "قال الفراء: أي شديدا.. وفي الصحاح: أي نصيبه ونصيب صاحبه." وكأن المعنى أنكم لا تكتفون بأكل نصيبكم، بل تأكلون نصيب إخوانكم الآخرين من يتامى ومساكين وغيرهم.

**التفسير**: أي انظروا كيف تتراءى عاقبة أعمالكم في أشكال شتّى. فبدلاً من التحلي بالخُلق الطيب وتفقُّد اليتامى والفقراء، أسرفتم أموالكم وأهلكتموها، وعوضًا عن أن تدركوا أن سوء أعمالكم هو السبب وراء إفلاسكم، وتفهموا أن هذا تحذير رباني لتأخذوا الحذر في المستقبل، فلا تسرفوا وتحافظوا على أموالكم،

بدأتم تقولون ربي أهانن.. أي كان على الله أن يكرمنا، ولكنه أخزانا، مع أن الواقع أن الله تعالى أراد بذلك أن يلقّنكم درسًا؛ وإلا فمتى كانت أعمالكم حسنة حتى يكرمكم. لقد منّ الله عليكم إذ آتاكم هذه النعم، وقد آتاكم إياها لتنفقوها على الفقراء، ولكنكم ملأتم بالأموال جُرُبَكم، ثم أهلكتموها في الخمر والرقص والغناء مهملين اليتامى والفقراء، ولما أفلستم أخذتم في الصراخ أن الله أهانكم وأخزاكم، وبدلاً من أن تدرسوا أحوالكم دراسة عميقة صحيحة لتعرفوا أسباب إفلاسكم، بدأتم تفسرونها تفسيرا خاطئا. ألم تفكّروا في مدى انحطاطكم ولؤمكم وخسّتكم؟ حيث تأكلون أموال اليتامى كأنها حق لكم! وترثون أموالاً وعقارات وأراضي ومساكن ثم تهلكونها كلها في البذخ والانغماس في الملذّات! لقد كسب آباؤكم الأموال بإرهاق وتعب فتهلكونها كلها متكبرين بأنكم أولاد الأثرياء، ثم تشْكون: لا يُكرِمنا الناس! ولِمَ يكرمكم الناس وهم يعرفون سوء حالكم؟ لا تزيدون أموالكم وعقاراتكم، ولا تتفقدون بها أحوال الفقراء واليتامى، بل تهلكون أموالكم وتضيعون أعماركم، في الأكل الشهيّ، أو اللباس البهيّ، أو الرقص والغناء، أو شرب الخمور، أو الفسق والفجور، ثم تشتكون: لا ندري ما حلّ بالناس؛ فإنهم لا يكرموننا مع أننا نحن الكرام وأبناء الكرام.

وهكذا تأخذهم الحيرة والعجب، فيقولون بأنفسهم: يبدو أنه قد ضُربت علينا اللعنة من الله تعالى لسوء أعمالنا، وإلا أي شك في عزنا وشرفنا؟

فكأن الله تعالى يردّ عليهم: إذا كان آباؤكم أثرياء، فكان المفروض أن تكونوا أكثر منهم ثراء، فإذا كان والد أحدكم يكسب ألفًا فكان على ابنه أن يكسب عشرة آلاف، وينفق للنهوض بالناس، لا أن يدمر ماله منغمسًا في الملذات، ثم يتسول من الناس. لقد أهنتم أنفسكم بأنفسكم، وأسقطتم أنفسكم من أعين الناس، فسقطتم في عين الله وأعين الناس أيضا. لقد حلّتْ بهم ساعات من الضيق لتأخذوا الحذر وتتداركوا الخطأ، ولكنكم تردّيتم أكثر.

ومن معاني ﴿لَمًّا﴾ النصيب، فعليه ستُعتبر هذه الآية إشارةً إلى أن الأموال التي يقتنيها المرء ليست له وحده، بل فيها نصيب لآخرين من بني جنسه، ولكن أصحابها ينفقونها على أنفسهم فقط، وهكذا يهضمون حق الآخرين.

وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

**شرح الكلمات:**

**جَمًّا:** الجَمُّ: الكثير من كل شيء. جاءوا جمًّا غفيرا: أي جاءوا بجماعتهم، الشريفُ والوضيع و لم يتخلف أحد وكانت فيهم كثرة. (الأقرب)

**التفسير:** أي أنكم تدخرون الأموال وتحتكرونها. لقد آتاكم الله المال لتستثمروه بالتجارة، وتروّجوا به شتى الصناعات والحرف، أو تنفقوه على الفقراء، ولكنكم تغلقون جِرابكم.

ومن معاني هذه الآية: ليس همكم إلا المال دونما تمييز بين حلال وحرام. إذا جاءكم الحرام أخذتموه، وإذا جاءكم الحلال أخذتموه. إذا وجدتم شيئا عاديًا اقتنيتموه وإذا رأيتم شيئا غاليًا جلبتموه. ليس هدفكم إلا جمع المال، بغض النظر عن مورده.

لقد بين الله تعالى في الآيات الأربع السابقة أربعة أمور تُهلك الأمم، أوّلها: عدم رعاية اليتامى، حيث يقول الله تعالى إن هؤلاء القوم إذا أنعم الله عليهم بنعمة قالوا: نحن ذوو حظوة عند الله تعالى، وإذا ابتُلوا بضيق قالوا: لقد أهاننا الله. وكأنهم في الحالتين ينسبون العزّة إلى أنفسهم؛ إذا أُكرموا قالوا: كان إكرامنا واجبا، وإذا أُهينوا قالوا: لقد أخطأ الله إذ كان إكرامنا واجبًا. فيفند الله تعالى زعمهم، ويخبرهم: الواقع أن أسباب دماركم موجودة في أنفسكم، وبسببها يُصَبّ عليكم سوط عذاب؛ أي هناك أسباب في الإنسان تدفعه إلى الدمار، وهي موجودة فيكم، فإذا لم تهلكوا فمن يهلك؟

فأولُّ الأسباب وأهمُّها لهلاك الأمم عدمُ رعاية اليتامى. إنه حكم ديني وروحاني في ظاهره، ولكنه في الحقيقة وثيق الصلة برقي الأمم وزوالها. من المحال أن تزدهر أُمةٌ لا تهتمّ برعاية اليتامى وتهمل تربيتهم بحيث يضطرون لأن يتكففوا على الأبواب. إن الأعمال الكبيرة تتطلب تضحيات كبيرة، وبدون التضحيات الكبيرة لا يمكن إنجاز الأعمال الكبيرة. والتضحيات الكبيرة نوعان؛ التضحية بالمال، والتضحية بالنفس. ونرى أن الإنسان لا يبالي بتحمُّل المشاقّ، ولكنه حين يفكر في مصير أولاده من بعده يصبح جبانًا، وينسحب من ميدان التضحية. فلو تمّتْ رعاية اليتامى في أمة كما ينبغي، فمن المحال أن يتردد أحد أفرادها عن التضحية بالمال أو النفس، كلا بل سيتقدم للتضحية ضاحكًا مسرورا، ويرضى بكل نوع من الشدائد بكل سرور. عندما يرى القوم بأعينهم يوميًا أن فلانا مات فتكفّل فلانٌ من أثريائنا بأيتامه، وأسكنهم في بيته، وصار يدرسهم ويكسوهم ويطعمهم أفضل الطعام ويكسوهم أفضل اللباس دون تمييز بينهم وبين أولاده، فالجميع منهم يستعدّ للتضحية قائلا: إن فلانا تُوفي منا، فكفل فلان من إخواننا تربية أيتامه كأبنائه، وأن فلانًا مات فأخذ فلان من الأثرياء أولاده وتولى الإنفاق عليهم، فلا ضير لو ضحّيتُ بحياتي ولا بأس لو متّ في سبيل الأمة؛ لأن إخواني سيتولون تربية أولادي أفضل مني. فلو تولّد هذا الإحساس عند كل فرد من الأمة، فتولى القوم كفالة اليتامى بينهم على صعيد الأمة فمن المستحيل القضاء عليها، ولن يتردد أفرادها عن أي تضحية مهما كبرت. وكما قلتُ إن الناس لا يتلكأون عن التضحيات إلا لأنهم يفكّرون أننا لو قُتلنا، لضاع أولادنا إذ لن يتكفلهم أحد ولن يتفقد حالهم أحد، بل سينهرهم الناس ويسخّرونهم كالخدم، ويركلونهم بأرجلهم، ويطعمونهم كسرات موائدهم، ويكسونهم البالي من ثيابهم، ولن يمسحوا رؤوسهم بيد الشفقة، ولن ينظروا إليهم بالمحبة، بل يزجرونهم وينهرونهم، وإذا بكوا فلن يدللهم أحد ليسكتوا، وإذا احتاجوا لشيء فلن يسده أحد. عندما تسيطر هذه الأفكار على قلب أحد وعقله، يرتعد جسمه وينخلع قلبه، فيتردد في التضحية بالنفس، ويفرّ من الميدان. كما يمنعه هذا التفكير من التضحية بالمال بلا تردد في سبيل الأمة. إنه يقول في

نفسه: سأقوم بتربية أولادي كيفما استطعتُ ما دمتُ حيًّا، ولكن لو ضحيت بمالي ومتُّ بعده، لم يجد أولادي مالا، فماذا يكون مصيرهم بعدي؟ وهكذا يصبح جبانًا، ويتردد عن التضحية بالمال.

الواقع أن الإنسان لا يخاف موته أكثر مما يخاف على مصير أولاده بعد موته. وهذه العاطفة تُحدث في نفسه اضطرابا وقلقا.. فتضعف عزيمته وتخور قواه. إنه يفكر أن في القوم أيتاما يسألون الخبز على أبواب الناس، فيقول في نفسه: لو متّ اضطرّ ابني للتسول مثلهم. ثم يتضاعف خوفه برؤية مجموعة أيتام يطرقون بابًا ويسألون أهل البيت الطعام، فيخرج صاحب البيت بسماع صوتهم متذمرًا قائلا: لقد ضيق هؤلاء الأولاد العيش علينا، إذ يزعجوننا يوميًا بقولهم: هل من طعام، هل من طعام، وبرؤية هذا المشهد يزداد المرء جبنًا ويقول: لو متّ سيضطر ابني للتسوّل حتمًا، فسيقول له الناس: لا تزعجنا بصوتك الكريه. ثم إنه يرى مشهدًا ثالثًا حيث يجد أولاد شخص متوفى يغسلون الأواني في بيت بعض القوم ليكسبوا لقمة للعيش، فيزداد جبنًا ويقول: لو أنا متُّ فسوف يسخَّر أولادي في هذه الأعمال الحقيرة. أما الذي يظلم بنفسه اليتيمَ فيكون أكثر الناس جبنًا إذ يقول لو أنا متّ فسيعامل الناس أولادي كما أعامل هذا اليتيم.

فاعلموا أن رعاية اليتيم ليست حسنةً وتقوًى فحسب، بل إنها تصنع شخصية الأمة وتشجع أفرادها على التضحية أكثر فأكثر. أما الأمة التي لا تحسن معاملة اليتامى فلا تزدهر أبدا.

ذات مرة أردت كفالة بعض اليتامى في بيتنا، فقلت لأهلي أعطيكم نفقتهم، ولكن عامِلوهم كما نعامل أولادنا تمامًا، إذ من المحال بدون ذلك القولُ إننا قمنا بكفالة اليتيم. ومع ذلك رأيت أن زوجاتي يستعملن هؤلاء اليتامي كأنهم خدم. أنا لا أقول ألاّ يستعين بهم المرء في العمل مطلقا، لأنهم إذا لم يعملوا أصبحوا كسالى عاطلين، وإنما أقول يجب أن تكلّفوهم بأعمال تكلّفون بها أولادكم. وإذا كنتم لا تحبون تكليف أولادكم بعمل فلا تستعملوا اليتيم فيه بالمرة. المهم أنني قلت لأهلي إني أعطيكم نفقات هؤلاء الأيتام، ومسؤولية تكليفهم بالعمل المناسب تقع عليكم.

فلا تعاملوهم معاملة الخدم. فلم تعمل بنصيحتي إلا زوجتي أُمّ طاهر – رضي الله عنها – إذ قامت بتربية طفل يتيم كتربيتها لأولادها دونما تمييز بينه وبينهم، وإن ثبت فيما بعد أن حالة هذا اليتيم لم تكن جيدة.

الواقع أن ابن أخي ميرزا مظفر أحمد هو وحده الذي قد قدّم بهذا الصدد نموذجًا رائعا جدا، حيث تكفَّلَ طفلةً يتيمة ممن تركهم مئات الآلاف من الآباء الذين ماتوا في البنغال نتيجة القحط والمجاعة. فقام بتربيتها بأسلوب رائع جدا، و لم يفرّق بينها وبنته، ورعاهما رعاية واحدة، فكان يكسوها ما يكسو بنتَه، ويعلّمها ما يعلّم بنتَه، وكانت تضرب بنتَه كما هي تضربها، وكانت بنتُه تناديها بأختي، وتحترمها. وهذا ما يسمى تربية اليتيم. ليس المراد من تربية اليتيم أن تضعوه في بيتكم كالخادم وتسخّروه في شتى الأعمال طوال اليوم، ثم تطعموه كسرات من الطعام، وتلبسوه أسمالا بالية، وإذا أخطأ قليلا قمتم بسبّه أو لطمه، ومع ذلك ظننتم أنكم قمتم برعاية يتيم. هذه ليست رعاية اليتيم في اصطلاح الإسلام إطلاقا، إنما المراد من تربية اليتيم أن يربيَه المرء كما يربي أولاده، ولا يفرق في معاملته شيئا. إن إطعام اليتيم شيء، أما رعايته فشيء آخر تماما، لأن الله تعالى قال في القرآن الكريم ﴿كَلَّا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾، و لم يقل: تطعمون اليتيم. لو كان المقصود إطعامه فحسب لما قال القران ﴿لَا تُكْرِمُونَ﴾، بل قال "لا تطعمون"، فهذا يبين بوضوح أن الله يريد أن تتمّ تربية اليتيم مع احترام وإكرام، وليس أن يعطى الطعام كصدقة.

كنتُ أنشأت دارا لليتامى في قاديان، ولكني عرفت بعد أيام أنهم يسخَّرون في الأعمال طوال اليوم. لا بأس في الاستعانة بهم في العمل، ولكن يجب أن لا نستعين بهم إلا بقدر ما نستعين بأولادنا، لا أن يكون أولادنا جالسين براحة ونثقل اليتيم بالعمل لأنه صار تحت رحمة الآخرين بوفاة والديه! يجب أن تربي اليتيم كما تربي أولادك، وتستعين به في العمل بقدر ما تستعين بأولادك، ثم إذا تخاصم مع أولادك فيجب أن يكون له الحق أن يضربهم كما يضربونه، ولا تقول له أم أولادك: حذارِ أن تضرب أولادي، وإلا سأضربك ضربا مبرحا. لو ربّيتَ اليتيم على هذا النحو، فيحق لك ضربه على الخطأ لإصلاحه، لأنك تضرب أولادك أيضًا على الخطأ.

المهم أن لا تمسّ كرامته. فكما قلتُ إن القرآن الكريم لم يحثّ على إطعام اليتامى فقط، بل حثّ على إكرامهم، إذ لا بد من ذلك لرقيّ الأمة. إذا لم يُكرَم اليتيم في المجتمع فلن يستجيب الناس لكم مهما أمرتموهم بالتضحية بأرواحهم، بل سيخشون من أن يعاني أولادهم بعدهم كما يعاني اليتامى الآخرون. أما إذا وجدوا المجتمع مهتمًا باليتيم كما ينبغي فيقولون: إن حياتنا وموتنا سيّان فيما يتعلق بتربية أولادنا، لأنهم سيعيشون بعد موتنا باحترام كما يعيشون في حياتنا، بل تكون حياتهم أفضل بكثير، وعندها لن يولوا الدّبر من ساحة القتال مهما استُشهد منهم، بل سوف يقدّمون كل تضحية مسرورين. باختصار، هذه مسألة هامة جدا، وما لم يستوعبها أفراد قوم جيدا، فمن المحال أن يحرزوا الرقيّ.

والأمر الثاني من هذه الأمور الأربعة التي تُهلك الأمم هو قوله تعالى ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.. أي لم يكن بعضكم يرغّب بعضا في إطعام الفقراء. والحق أن الانتصار في الحروب القومية محال بدون رعاية الفقراء، إذ لن يتيسر عدد كاف من الجنود؛ لأن الفقراء في المجتمع أكثر عددًا من الأغنياء دائما. فلو علِم الجنود أن أُمّتهم تحسن إليهم دائمًا وتسدّ كل حاجاتهم، فتقوم بعلاجهم حينما يمرضون، وتطعمهم حين يجوعون، وتكسوهم عند حاجتهم إلى الثياب، وهي تستنجد بهم الآن في هذا الوقت العصيب، فسينهضون للتضحية ملبّين دعوتها. لا شك أن في كل مجتمع لئامًا وأراذل، ولكن عدد الشرفاء فيه أكثر دائمًا، وسيقول هؤلاء الشرفاء في الوقت العصيب: إن أمتنا بحاجة إلينا اليوم، فلِمَ نتردد في التضحية في سبيلها؟ فيضحون بأرواحهم دفاعا عنها بلا هوادة. أما إذا أهملَهم المجتمع فيقولون: كنا جياعًا فلم يطعمنا أحد، وكنا عراة فلم يَكْسُنا أحد، وكنا مرضى فلم يداوِنا أحد، وكنا محتاجين فلم يساعدنا أحد؛ فلِماذا نُضحِّي من أجلهم اليوم؟ ماذا فعلوا من أجلنا حتى نزهق أرواحنا من أجلهم؟ لقد أهملونا، فاليوم نهملهم.

إذن، فعدم رعاية الفقراء يؤدي حتما إلى ضعف عاطفة التضحية عند أفراد الأمة، فيستحيل أن تنتصر في حروبها.

إننا في قاديان نسعى جهدنا بحسب نظام رعاية الفقراء للتخفيف من معاناتهم بشتى الطرق، فنهيئ لهم الكسوة، ونمدّهم بالمال والغلال، ونقدم لهم الخدمات الطبية، ومع ذلك يوجد بينهم مَن يعترض على الجماعة، إذ يظنون أن من واجب المجتمع أن ينفق عليهم، أما هم فلا مسؤولية عليهم. ولكن معظم هؤلاء الفقراء يشعرون أن الجماعة تضحي من أجلهم كثيرًا، ومن واجبهم أن يكونوا أكثر تضحية من الآخرين عند ضرورات الجماعة. فكلما نوجه دعوة للتبرع يسعى هؤلاء الفقراء لأن يساهموا فيها أكبر مساهمة ممكنة بطريق أو آخر، ولو جاعوا بعدها. مع أن تلك الدعوة ليست موجهة لهم، ولا مسؤولية عليهم. إلا أنهم يشعرون أن القوم يضحون من أجلهم ويسدّون حاجاتهم، فلذلك يقوم هؤلاء أيضًا بالتضحية للأمة، ويساهمون في شتى التبرعات.

إذن، فمن أكبر فوائد رعاية الفقراء أن الأمة تجد مقاتلين كثيرين عند اندلاع الحرب، إذ إن الفقراء يشكّلون الأكثرية فيها. إن سيف المليونير لن يعمل في الحرب إلا عمل سيف واحد، بينما تحتاج الأمة إلى ملايين السيوف، ولا تتهيأ هذه السيوف بدون الاعتناء بالفقراء وأداء حقوقهم حتى يطمئنوا. إذا قامت الأُمّة بسدّ حاجات الفقراء والمساكين، فلا بد أن يقول الشرفاء منهم في أنفسهم عند حلول محنة بالأمة إن القوم قد أحسنوا إلينا، فمن واجبنا الآن أن نساعدهم في ساعة العسرة هذه. ومثاله ما قد حصل في إنجلترا وروسيا وأمريكا وألمانيا وغيرها من البلاد حيث ضحّى مئات الآلاف بأرواحهم في سبيل أمّتهم خلال الحرب العالمية. وليس ذلك إلا أن هذه الشعوب تهتمّ برعاية فقرائها. إن الناس في الهند ينخرطون في الجيش إما تقليدًا لآبائهم الذين عملوا فيه، أو طمعًا في ضيعات وأراض، أما الإحساس بحاجات الأمة فهو ضعيف جدًّا عند أهل الهند.

ثم لو قام المجتمع برعاية الفقراء فيقولون في أنفسهم إن الذين سدّوا حاجاتنا بأموالهم لا بدّ أن يخصصوا لنا نصيبا من الفتوحات والغنائم، وهذا أيضا سبب هام آخر لرقي الأمة. سيقول الفقراء إن أموال الأمة لن تنفع الأثرياء وحدهم، بل تنفعنا أيضا. أخبر الله تعالى في القرآن الكريم أنه جعل للفقراء حقوقًا في الأموال العامة

فقال: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾(الحشر:٨).. أي كي لا يظل المال دائرًا بين الأغنياء دون الفقراء، بل يجب أن يصل المال إلى الفقراء أيضا.

إذًا، من أكبر فوائد رعاية الفقراء أنهم يشعرون أنه كلما ازدهر قومهم زاد نصيبهم في أموال الأمة. ولكن إذا لم يُعطَوا نصيبهم من أموال الأمة، قالوا لم نُعطَ شيئا منها، وإنما ينتفع بها الأثرياء فقط، فلماذا نزهق أرواحنا من أجلهم؟

والأمر الثالث هو قوله تعالى ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾. ويؤكل التراث لَمًّا بالإسراف. فكأن الله تعالى يقول للكافرين: لقد ورثتم المال من آبائكم، فبدأتم تُهلكونه بدل استثماره. والإسراف إذا وُجد في قوم دمّرهم حتما. إنه علامة كبيرة لزوال الأمم. في الإسراف ضرران كبيران؛ أولهما: أن المرء يكسل ويجلس عاطلا. لو أنه عمل كآبائه بجدّ واجتهاد لما جلس عاطلا، ولكنه يظن أن الجدّ والاجتهاد إنما هو سبيل لكسب لقمة العيش، وما دام يجد الطعام بسهولة لما عنده من أموال آبائه، فيظل عاطلا ولا يعمل شيئا. إن هؤلاء العاطلين كالعَلَق الذي يمتص دم الإنسان، وإنهم جديرون بالمذمة واللوم الشديدين. لو كان في الأمة آلاف من أصحاب المليارات العاملين، فلن تموت هذه الأمة، أما إذا كان بين هؤلاء ملياردير واحد أخذ ثروات آبائه في قبضته، وظنّ أنه لا حاجة له للعمل أو الاجتهاد، باعتبار أن المرء يجدّ ويجتهد لكسب لقمة العيش، ولديه الكثير منه فلا داعي لأن يجتهد، فاعلموا أن حجر أساس دمار الأمة قد وُضع بيد هذا. لا خطر على القوم من وجود الملياردير بينهم، إن لم يكن عاطلا رغم ثرائه، بل يعمل ويجتهد، ولكن هناك ألف خطر على القوم من وجود عاطل بينهم، لأنه يظن أن لا حاجة به للعمل والاجتهاد إذ يكفيه أن تظلّ ثروة أبيه في قبضته ويتصرف فيها كما يشاء. هناك كثير من أصحاب المليارات في إنجلترا، ولكنهم يجتهدون رغم ثرائهم، وبدلاً من أن يُهلكوا أموالهم يستثمرونها في إنشاء المصانع وغيرها، مما يهيئ العمل للآلاف. فثروتهم تعمل على الرقي القومي. لا شك أن بينهم مَن يدخرون أموالهم في البنوك، ولكن معظمهم يستثمرونها بإنشاء المصانع وغيرها، أو إذا وضع بعضهم أمواله في البنك فلا يجلس عاطلا، بل يعمل كسكرتير أو رئيس لبعض الجمعيات، وهكذا

يقدِّم خدمات تطوعية للمجتمع، فلا يتسبب في هلاك قومه. وهذه الآية لا تتحدث عن مثل هؤلاء الأثرياء، وإنما عن الأثرياء العاطلين، فتندِّد بهم: تأكلون أموال آبائكم وتعيشون عاطلين، والأمة التي يوجد فيها أشخاص منحوسون كمثلكم لا يمكن أن تحرز الرقي والازدهار.

ثم إن من الحقائق الثابتة –سواء اعتبرتموها سيئة أو جيدة– أن المجتهدين ينالون العزّ في المجتمع، فينال أولادهم أيضا بعدهم شيئًا من العز. مهما مال الناسُ إلى البلشفية الفوضوية✪، إلا أن أولاد الكبراء أيضًا ينالون شيئا من العزة مثل الآباء. هذا أمر فطري لا يقدر أحد على تغييره. فمَن قام بإنجاز بارز حظي أولاده أيضًا بشيء من العز، سواء استحقّوه أم لم يستحقوه. ولو رَكَن أولاد الكبار إلى الكسل فلا بدّ أن يؤثر كسلهم على الأمة تأثيرًا سلبيًا ويؤدي إلى تشتُّت شملها، لأن زعماء القوم يكونون عادةً من الأُسر الكبيرة. فما دام هؤلاء الأولاد العاطلون المبذّرون لثروة آبائهم يتمتعون بالعز والاحترام بين القوم وتوضع القيادة في أيديهم، فمن الطبيعي أن يفتقر القوم إلى زعماء حقيقيين. لا شك أن زعماء جددًا أيضًا يخرجون بين الأمة، ولكن هؤلاء الذين اختيروا زعماء بسبب عراقة أسرهم وعظمة آبائهم لو مالوا إلى الكسل، فلا يبقى في الأمة إلا زعماء عديمي الكفاءة، وهكذا ستفتقر الأمة إلى القيادة الحقيقية.

والأمر الرابع المذكور هنا هو قوله تعالى ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾. إن حب المال الشديد أيضًا يجعل المرء لا يفرّق بين الحلال والحرام، ويدفعه إلى ظلم الآخر. والأمة التي ينتشر فيها الظلم لا مناص لها من التشتت والهلاك، والأمة التي يجد أفرادها متعة في سلب الآخرين لا يُكتب لها الازدهار أبدًا.

---

✪ إشارة إلى الثورة البلشفية الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧م، التي خلقت الكثير من الفوضى وقتلت القيصر وعائلته من نساء وأطفال، ونكّلت بالنبلاء وسعت إلى القضاء على تراثهم وتناسي أي فضل لهم. والروس الآن يبدون الندم على ما اقترفته هذه الثورة من جرائم بحق الأمة وتراثها، ويسعون إلى إعادة الاعتبار إلى التراث الذي تمت الإساءة إليه. (المترجم)

والنتيجة الثانية لحبّ المال حبًّا جمًّا أن مثل هذه الأمة تظل محرومة من التقدم الصناعي أيضًا. ذلك أن الذي يحب المال حبًّا جمًّا لا يستثمره في التجارة أو الصناعة خوفًا من الخسارة، فيكنـــزه بدلاً من استثماره، وبالتالي لا يزداد ماله، كما تُهضَم حقوق الفقراء التي هي في ماله. فمثلاً لو أنشأ مصنعا بإنفاق ١٠ آلاف روبية، وعمل فيه ٢٥ عاملا، فسيعيش حوالي ٢٥ عائلة بسبب مصنعه. ولو كان في كل أسرة ٥ أشخاص، فهذا يعني أنه قد هيّأ الطعام لحوالي ١٢٥ شخصا باستثمار هذا المبلغ. أما إذا احتفظ بماله بدل استثماره، فهذا يعني أنه حرم ١٢٥ شخصًا الطعامَ. ولو كان في القوم ١٠ آلاف ثري واحتفظ كلٌّ منهم بماله و لم يستثمره، فلن يجد مئات الآلاف العمل وستتضرر صناعات البلاد ضررا كبيرا.

فالضرر الثاني لحب المال الشديد أن الأمة لا تتقدم صناعيًا.

والضرر الثالث لحب المال حبًّا جمًّا قلّةُ التبرعات التي تنفع الأمة؛ لأنه كلما دُعي الناس للإنفاق غلب عليهم حبُّ المال وترددوا في دفع التبرعات.

والضرر الرابع لحب المال حبًّا جمًّا أنه عندما يتطلب حبُّ الوطن الإيثارَ من أصحابه يصبحون خونةً للأمة خوفا من العدو. قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(آل عمرا:١٤١).. أي أن الحرب سجال، فقد ترجح فيها كفة العدو، وعندها يتآمر مَن يحب المال حبًّا جمًّا مع العدو إذا علم أنه على وشك الانتصار، ويخون أمته حفاظًا على ماله.

كان الخليفة الأول ﷺ يقول إن الإنجليز يسلبون الناس بالتعامل بالربا أخذًا وعطاءً، وكان يحكي بهذا الخصوص واقعةً مفادها أن حكومة ولاية "أَوده" الإسلامية بالهند قد دُمرت بسبب حب المال حبًّا جمًّا. ذلك أن الإنجليز أعلنوا بين الناس أن من يضع نقوده في بنوكهم في مدينة "كولكتا" فسوف يعطونه ربح ٢,٥%، وكان هذا الربح مغريا، فجمع الناس أموالهم في البنك الإنجليزي في كولكتا، حتى إن النساء بِعْنَ حليَّهن ووضعن أموالهن في البنك. لقد قطعوا لهم وعودا معسولة، وقالوا لهم لو وضعتم مليونا فسوف تربحون ٢٥ ألفا، بالإضافة إلى رأس مالكم الذي سيظل محفوظا، مع إمكانية سحبه متى شئتم. فوصلت أموال

المسلمين كلها إلى البنك الإنجليزي في كولكتا. ثم أغار الإنجليز على ولاية "أوده"، وهدّدوا الرؤساء الموجودين في العاصمة "لكهناو" أنهم إذا أخبروا الملِك بهجومهم فسوف يجمّدون أموالهم المودعة في بنكهم. وهذا ما فعل هؤلاء الخونة. فبينما كان الملِك يشاهد مصارعة الديوك ورقص المومسات وغناءهن، قال شخص: جلالة الملِك، بلغنا أن الجيش الإنجليزي زاحف إليك. فزجره حاشيته المتآمرون مع الإنجليز سرًّا، وقالوا للملِك: من المحال أن يتجاسر الإنجليز على ملِكنا العظيم هكذا؟ إن هذا الجاهل قد كدَّر صفو ملكنا المعظم بكلامه الوقيح. إن الإنجليز لا يستطيعون أن يضروا ملِكنا شيئا. فظلّ الملِك منهمكا في مشاهدة مصارعة الديوك والرقص والغناء، وداهمت الجيوش الإنجليزية عاصمته (لكنهاو).

إذن، حبُّ المال بشدة يجعل القوم خونةً، لذلك لا يمكن أن تزدهر الأمة ما لم يُمْحَ حبُّ المال من قلوبهم.. أما بدون ذلك فلا يمكن أن تزدهر ازدهارًا حقيقيًا ثابتا.

والحديث هنا عن الكفار حيث يحذرهم الله تعالى من هلاكهم، وعليه فإن الله تعالى قد أخبرهم أن دمارهم لن يأتي من الخارج بل إن أسبابه موجودة في أنفسهم. فإن كل فرد من جماعة محمد (ﷺ) يعلم أنه لو قُتل في الحرب فأولاده سيجدون أبًا هو أشدّ شفقة منه، ويدرك كل مسكين أن محمدا ﷺ لو نال القوة فسوف يضمن له الطعام والثياب والعلاج ونصيبا متساويا من الغنائم. ومَن يرث من جماعة محمد (ﷺ) أموالا من أبيه فيعرف أن عليه ألا يضيعها بالإسراف، بل عليه أن يستثمرها وينفقها في المشاريع العامة لكي تتقدم أمته باستمرار بدلاً من التردّي. وإذا كان أحدهم ذا مال فلا يحبّه حبًّا جمًّا، بل ينفق أمواله في التبرعات، كما يأخذ الحذر كله كي لا يختلط بماله قرش من الحرام. وحيث إن كل علامات الازدهار متوافرة في محمد ﷺ وأصحابه، وكل علامات الانحطاط موجودة في الكفار، فكيف يظنون أنهم سيغلبون المسلمين؟ أيها الكفار، لا شك أنكم أكثر عددا، ولكن العصافير الكثيرة لا تغلب الصقر. إن كل واحد منكم يقصّر في رعاية اليتامى، ويجبن جبنًا شديدا، ولا يساعد الفقراء والمساكين، فأنى لكم أن تنتصروا في حربكم القومية؟ كل واحد منكم لو نال مال الإرث دمره بالبذخ والإسراف، وكلٌّ منكم يحب

المال حبًا جمًا ويتردد في إنفاقه حين تكون أمته بحاجة إلى المال.. فلا بد – والحال هذه– أن ينتصر المسلمون وتُغلبون.

هذا هو الأمر الذي يجب أن يجعله أفراد جماعتنا نصب أعينهم على الدوام. إذا كانت جماعتنا تريد الازدهار فلا بد لها من أن تتحلى بهذه المزايا الأربع، وتعضّ عليها بالنواجد. على دُعاتنا ومعلّمينا ورؤساء فروع جماعتنا أن يتذكروا أن من واجبهم رعاية اليتامى، وأن عليهم أن لا يطعموهم فقط، بل يكرموهم. عليهم أن يدركوا أن من واجبهم حماية المساكين من المعاناة في أكلهم وشربهم وما إلى ذلك. عليهم أن يدركوا أن عليهم تعويد أفراد الجماعة كلهم على العمل. يجب أن لا يوجد بيننا من يرث الأموال من آبائه ثم يجلس عاطلا. إذا صار أحد ملياردير ا بثروة آبائه ولا يعمل بنفسه، فيجب على الأمة أن لا تكرمه إطلاقا، فيجب أن لا يقال إنه رئيس كبير، بل ينبغي اعتباره أرذلَ من كَنّاسي المراحيض. كذلك إذا كان بيننا شخص قد أسَره حُبُّ المال، فلندرك أنه سيخوننا في أي وقت حرصًا على ماله، وينضم إلى العدو كلما وجد فرصة. لو تحلينا بهذه الصفات الأربع، فمهما بلغ عدد العدو –سواء ١٠٠ ألف أو مليونا أو ١٠ ملايين أو ١٠٠ مليون– فإنما مَثله ومَثلنا كمَثل ١٠٠ مليون عصفور إزاء صقر واحد.

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢٢﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٣﴾

**شرح الكلمات:**

**دُكّتْ:** دَكَّ الأرضَ: سوَّى صعودَها وهبوطَها، وكسَر حُفْرتَها بالتراب وسوّاها. (الأقرب)

**التفسير:** أي أنتم تفتقرون إلى هذه الصفات، ولكنها متوفرة كلها في محمد ﷺ وجماعته. فاعلموا أنه حينما تُدَكّ الأرض دكًّا كما أخبرنا في قولنا ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ

الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾(الزلزلة:٢).. وينـــزل قضاء الله تعالى، فيأتي الله مع ملائكته المصطفين صفًّا صفًّا، أو يأتي الله والملائكة قائمين صفًّا صفًّا.

## وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٤﴾

**التفسير**: الإنسان المذكور هو من لا يهتم برعاية اليتامى ولا إطعام المساكين، ويدمر أموال آبائه ويحب المال حبا جمًّا.. فإنه سيحاول إصلاح نفسه وتنظيم قومه وتوحيد شملهم وحمايتهم من الدمار، ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾. ذلك أن شخصية الأمم تُبنى بجهود سنوات وسنوات؛ إذ من المحال أن تغيّر شخصية أمتك بمجرد أن فكّرتَ في ذلك. إن الأمة لا تعتاد على إكرام الضيف في ليلة وضحاها، بل بعد جهود نصف قرن، بل قرن من الزمان، حتى يتصف كل فرد من الجماعة بهذه الميزة. كذلك لا يشعر القوم بواجب رعاية اليتامى وإطعام المساكين إلا بعد جهود سنوات طوال. والحال نفسه بالنسبة لمحو حبّ المال من القلوب، فهو لا يتيسر إلا ببذل الجهود لفترات طويلة. ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾.. أي قد فات الأوان لهذا الإصلاح بالنسبة للكافرين. إن هذه الأخلاق لا تتيسر إلا في مدة طويلة، أما أنتم أيها الكافرون، فقد ضاعت هذه الفرصة منكم؛ فإنكم واقفون الآن على هوة الهلاك، فلا مجال للإصلاح وتصحيح الأخطاء.

## يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٥﴾

**التفسير**: أي سيتأسف هذا الإنسان في ذلك اليوم قائلا: ليتني عملتُ على تقوية جماعتي بخَلق هذه الأخلاق فيهم! ولكن لن تنفعه الأماني يومئذ، بل سيحيط به الدمار عندها.

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٧﴾

**شرح الكلمات:**

**لا يوثق وَثاقَه:** أوثقَه في الوثاق: شدَّه به. (الأقرب)

**التفسير:** أي أنكم عذّبتم جماعتنا تعذيبًا لا مثيل له؛ فنعذّبكم يومئذ عذابًا لا مثيل له. لقد ألقيتم المؤمنين في أنواع القيد – والقيد هنا ليس بمعناه المعروف، بل يعني طردهم المؤمنين من العمل وغير ذلك من أنواع القيود والإيذاء – فاليوم سنؤذيكم بقيد لا مثيل له كما آذيتم جماعة نبينا من قبل.

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٨﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٩﴾

**التفسير:** النفس المطمئنة هي المتصفة بهذه الصفات الأربع، حيث يخبر الله تعالى أن الأمة التي تتحلى بهذه المزايا الأربع تأمن من كل زوال وإدبار. إذا أحبّ كل فرد رعاية اليتيم، فكيف يخاف الموت؟ وإذا كان كل فرد يتفقد المساكين وكان كلٌّ منهم يحثّ الآخر على الاعتناء بالفقراء، فأي خطر يواجهون في الحروب؟ لأن المساكين سيتقدمون في الحرب ويتحملون كل أذى فرحين قائلين: ما دام إخواننا يهتمون بنا ويضمنون لنا المأكل والملبس ويسدّون كل حاجاتنا، فمن واجبنا اليوم أن نساعدهم في هذا الوقت العصيب، فلن نتردد اليوم في أي تضحية دفاعا عن شرفهم. أو إذا كان كل فرد من الأمة ينأى عن البذخ والإسراف فكيف يمكن أن يعيشوا كسالى أو عاطلين؟ لو كان عندهم مال وعقار يقدر بمئات الآلاف فلن يجدوا في الكد والاجتهاد عارا. والذين لا يجدون في العمل عارا ويأكلون بعرق جبينهم رغم امتلاكهم الملايين، أو ينفقون أموالهم في حاجات الأمة، فإنهم

سيعملون على رقي الأمة ولن يتسببوا في انحطاطها. أو إذا لم يكن في قلوبهم حب جم للمال، فكيف يمكن أن يوجد بينهم خَوَنة؟ وكيف يخافون على أنفسهم؟ كلا، بل إنهم سيعيشون مطمئنين يقينا. وإذا تطلبَ الأمر التضحية بالنفس يقولون: لماذا نخاف الموت؟ فإن أمتنا سوف تتكفل أولادنا من بعدنا. وإذا تطلب الأمر التضحية بالمال يقولون: لماذا نبالي بأموالنا، فإن قومنا يرعون المساكين؟ فيقفزون في النيران مطمئنين غير آبهين بأي خطر.

لقد بين الله تعالى في قوله ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾.. سرَّ رقيِّ الأمم هذا.. أي أن الإنسان المذكور من قبل كان يفتقر إلى هذه الخصال الأربع، ولكنك يا صاحب النفس المطمئنة تتحلى بها، ولذلك تنعَم بالنفس المطمئنة. فالآن ارجع إلى ربك راضيًا مرضيًا. أي يا عبدي، قد أنجزت في الدنيا المهمةَ التي خَلقتك من أجلها، فرضيتَ بعملك ورضينا أيضا.

## فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٣٠﴾

**التفسير**: وكما أن الإنسان يحافظ على ممتلكاته، كذلك سنعتبر الهجوم عليك هجوما علينا، وإيذاؤك سيثير غيرتنا. لقد دخلتَ في عبيدي فلا مجال لأحد الآن أن يصول عليك. ولو حاول أن يستَعْبدك أحد بعد ذلك فسأحاربه بنفسي، وأعاقبه على إساءته.

## وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣١﴾

**التفسير**: الناس في الدنيا يسخّرون عبيدهم لخدمات جسيمة، ويعذّبونهم أنواع العذاب، ولكن الله تعالى يقول مَن دخل في عبيدي أدخلتُه جنتي. وحيث إنك قد دخلتَ في عبيدي فتعال يا عبدي وادخل جنتي.